

أدب المنفى الفلسطيني بالإشارة إلى إسهامات محمود درويش

ومريد البرغوثي: دراسة تحليلية

بحث جامعي لنيل شهادة ما قبل الدكتوراه

إعداد

مطيع الرحمن

تحت إشراف

الدكتور محمد قطب الدين



مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي - ٦٧

٢٠١٧



مركز الدراسات العربية و الإفريقية

Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax: 91-11-2671 7525

Date: 21/07/2017

DECLARATION

I declare that this dissertation entitled “**Exile Literature in Palestine with Reference to the Contributions of Mahmoud Darwish and Mureed Al Barghouti: An Analytical Study**” submitted by me is an original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other University/Institution partially or fully.

Mutiur Rahman
Mutiur Rahman
(Research Scholar)

Dr. M. Qutbuddin
Dr. M. Qutbuddin
(SUPERVISOR)
CAAS/SLL&CS/JNU
Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. RIZWANUR RAHMAN
Prof. RIZWANUR RAHMAN
CHAIRPERSON
CAAS/SLL&CS/JNU
Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

الباب الأول

أدب المنفى

هذا الباب يحتوي على فصلين وهما كما يلي:

- الفصل الأول : مفهوم أدب المنفى وأبعاده التنظيرية
- الفصل الثاني: المنفى وتجلياته في الأدب العربي والفلسطيني الحديث

الباب الثاني

حياة محمود درويش ومريد البرغوثي ومساهمتهما في

الأدب العربي

هذا الباب يحتوي على فصلين وهما كما يلي:

- الفصل الأول : محمود درويش نشأته ودراسته وإسهاماته الأدبية
- الفصل الثاني: مريد البرغوثي نشأته ودراسته وإسهاماته الأدبية

الباب الثالث

دراسة تحليلية انتقائية لأعمال محمود درويش ومريد البرغوثي الأدبية

هذا الباب يحتوي على ثلاثة فصول وهي كما يلي:

- الفصل الأول : دراسة تحليلية في رأيت رام الله لمريد البرغوثي
- الفصل الثاني: دراسة تحليلية في نصي يوميات الحزن العادي و في حضرة الغياب لمحمود

درويش

- الفصل الثالث: آراء الكتاب حول رأيت رام الله ويوميات الحزن العادي وفي حضرة الغياب

مقدمة

لم يزل الأدب كشكل من أشكال المقاومة أداة هامة لأولئك الذين هم مضطهدون ومستعمرون. يمكن وصف أدب أي شعب بأنه مجموع ناتج العديد من الأفراد في ذلك المجتمع. ليس الأدب انعكاسا لتجارب الناس الجماعية فحسب، إنما هو أيضا ذلك الذي يشمل الطريقة التي ينظر بها أي مجتمع إلى العالم ويتصور مكانه في صنع ذلك العالم. وفي حين إدراك مكانه في العالم يتطور أدب ذلك المجتمع وفقا للبيئة التي تشاركها.

إن استعمار أي مجتمع من قبل سلطة إمبريالية يضع خطابا حول الثقافة والسياسة والاقتصاد في ذلك المجتمع وكان من الخصائص الرئيسية للاستعمار في القرن التاسع عشر توسيع أراضيه وإقامة امبراطورية فيستخدم كل أدوات القهر والاضطهاد ويحقق هدفه عن طريق السيطرة والتسلط على ثقافة السكان الأصليين ومحوها.

وبما أن الأدب هو انعكاس رئيسي لثقافة أي مجتمع فإن الإمبريالية تركز بشكل كبير على إنتاجها وتعتمد عليها إضافة إلى عرقلته في المجتمع الأصلي وهذا هو السبب وراء القول بأن الإمبريالية تتبع الأدب وليس على العكس. وأصبحت الزيادة المفاجئة في خطابات ما بعد الكولونيالية كنفد للاستعمار ظاهرة كبرى في مجتمع ما بعد الاستعمار. إن عملية الاستعمار ليست مرتبطة فقط بالإقليم بل تتعلق كما قال "فرانز فانون" في كتابه "معذبوا الأرض" بإفراغ عقل المستعمر من كل شكل وكل مضمون¹.

عندما شهد النصف الأخير من القرن العشرين الاستعمار يأخذ في الهرم وأخيرا يلقي حتفه، بدأت المستعمرات السابقة تتحدى الأفكار المهيمنة للإمبريالية. وجد ذلك تعبيرا في شكل إحياء ثقافتهم في ألوان الفنون والأدب والرسم والموسيقى. وكان أدب مجتمعات ما بعد الاستعمار يستعيد الآن حرية الإبداع والتعبير وينتج أقاليم جديدة للخطابات ضد الأفكار

¹ . فانون، فرانز، معذبوا الأرض، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 2، 2015، ص 170.

المهيمنة للإمبريالية الأوروبية. كانت الإمبريالية تنهار حيث إن أسوارها المحصنة المصنوعة من الأساطير والأفكار التي تم اختلاقها من خلال إنتاج عدد كبير من الأدب حول الجماهير الاستعمارية كان يتم اختراقها والكشف عن زيفها من قبل الأدب الأصلي القومي. وقد حدث هذا في أجزاء كثيرة من العالم من آسيا الغربية وأمريكا اللاتينية إلى معظم أفريقيا. وهنا يصبح الأدب ما بعد الكولونيالي أداة لاستعادة الهوية الوطنية والتاريخ. كان الكتاب الأصليون هنا يعالجون الآن شعبهم ووطنهم في أشكال مختلفة من الأدب من أدب المقاومة والمنفى والاستعمار والاحتلال والعودة والسجون وغيره لإزاحة الستار عما خلفه الاستعمار من تدمير وتشويه ماضيهم. وكانوا بذلك يصوغون الوعي الوطني من خلال هذه الآداب التي كانت تخلق إرادة للحرية بين الجماهير. وقد ساهم كتاب مثل "تغوجي ثيونغو" الكيني و"فرانز فانون" المارتينيكي الأفريقي وغيرهما على سبيل المثال لا الحصر إسهاما كبيرا فيما نسميه أدبيات المنفى في السياق الأفريقي كما قام بذلك الأدباء مثل "إيزابيل أليوي"، و"بابلونيرود" و"إدواردو غالانو" في أمريكا اللاتينية و"محمود درويش" و"جبرا إبراهيم جبرا" و"إميل حبيبي" و"مريد البرغوثي" و"راجا شحادة" هم بعض الكتاب البارزين من قائمة طويلة الذين أسهموا فيه بشكل كبير في السياق الفلسطيني.

يستخدم مصطلح الكولونيالية وما بعد الكولونيالية لإعطاء مسار تاريخي للإشارة إلى بداية ونهاية الاستعمار وفجر عهد جديد وقد ظهر أحد أشكال الاستعمار في نوع الاستعمار الاستيطاني مع إقامة دولة إسرائيل في عام 1948م على أرض فلسطين. وبالنسبة لفلسطين لم تكن هناك مرحلة ما بعد الاستعمار حتى بعد ترك البريطانيين أراضيهم. إن الحلم الصهيوني لدولة يهودية وتوحيد الشتات اليهودي كان بطبيعته مشروعا استعماريًا، وقد عمل على نفس المبدأ والتصميم كما انطلق منه الأوروبيون طورا بعد طور للغزو على العالم الجديد. قدم خطاب الصهيونية الحديثة فلسطين كمنطقة غير أهلة قاحلة لا حياة فيها. ومنذ عام 1878م بدأ اليهود من أوروبا بشراء الأراضي الزراعية في فلسطين التي كانوا يتصورونها

كخطوة إلى الأمام نحو إقامة أرض إسرائيل. وقد تم ذلك في ظل الإمبراطورية العثمانية الآخذة في التفتت والانحطاط التي كانت أرض فلسطين جزء منها. نشر تيودور هرتزل (Theodore Hartzel) كتيباً في عام 1896م باسم "دير جود نستات" حيث قال إن الطريقة الوحيدة لبروز اليهود إلى عالم الحداثة هو عن طريق ولادة دولتهم القومية¹.

كانت الصهاينة تدرك جيداً أن العرب يعيشون على تلك الأرض وأنهم لا يرحلون عنها عن طيب خاطرهم ولكن في بادرة استعمارية صهيونية تم تقليص السكان الأصليين في أرض فلسطين إلى مادة من مواد التاريخ وهكذا شددت الصهاينة ببطء وبشكل تدريجي ومع تدفق أكبر من المهاجرين اليهود في أرض فلسطين قبضتها على الأرض. اعتبر الفلسطينيون ذلك عملاً من أعمال انتزاع الملكية ومن ثم بدأت تظهر حالة صراع واندمجت فكرة الأمن والسيادة بفعالية مع فكرة الاستيطان. كانت هذه الفكرة للاستعمار الاستيطاني توأمة من الإمبريالية الأوروبية كما قال هرتزل إن الدولة اليهودية في فلسطين ستكون بؤرة للحضارة ضد الهمجية والوحشية².

في عام 1917م، سهلت الحكومة البريطانية من خلال إعلان بلفور (Balfour Declaration) إقامة وطن يهودي في أرض فلسطين. بعد الحرب العالمية الأولى احتلت بريطانيا فلسطين وبدأت بالحكم عليها تحت نظام الانتداب وأصبح من الواضح الآن أن الانتداب تم تصوره بشكل واضح لتشكيل دولة إسرائيل. وخلال عام 1936م قامت هناك ثورة عربية مما أدى بالحكومة البريطانية إلى تشكيل لجنة تحت لورد بيل لدراسة الوضع في فلسطين. هذا هو ما قاله رئيس الوزراء البريطاني آنذاك تشرشل للجنة بيل "الظلم هو عندما يترك أولئك الذين يعيشون في البلاد (أي فلسطين) أراضيها لتبقى بيداء منذ آلاف السنين³.

¹ . Gregory, D, 2004, :The Colonial Present: Afghanistan, Palestine and Iraq, Malden, MA: Blackell Pub, UK, P: 48.

² . نفس المصدر، 49.

³ . نفس المصدر، 49.

شهدت هذه الفترة عددا كبيرا من المهاجرين اليهود إلى فلسطين وازدياد خروج الأوضاع من سيطرة بريطانيا وبالتالي قرار مغادرتها من نظام الانتداب. في تل أبيب في 16 مايو عام 1948، أعلن الزعيم البارز للمنظمة الصهيونية العالمية "ديفيد بن غوريون" إقامة دولة إسرائيل. كان ذلك بمثابة كارثة كبرى للفلسطينيين ومن ثم أطلقوا عليها النكبة. طرد الشعب الفلسطيني إلى منفى من مكانه وزمانه اقتلع أكثر من نصف سكان من منازلهم وقراهم وأصبحت حياتهم منذ أي وقت مضى منذ نزوحهم عام 1948 عبارة عن حالة مستمرة من المنفى وتكراره بأشكال مختلفة من إعادة الانخلاع إلى التهميش ومنه إلى الإنكار الكامل بالذات ثم تبعت هذه النكبة كارثة أخرى عام 1967 والتي أنتجت عن تهجير عشرات الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني وسهلت الاستعمار الاستيطاني مزيدا من الفرص للتوسع والتمدد في مساحات واسعة من أراضي فلسطين ولا يزال هذا المأزق بالنسبة للفلسطينيين يستمر إلى هذا اليوم.

ولد محمود درويش قبل النكبة بست سنوات. عانى التشريد وانتزاع الملكية في هذه الكارثة وطرده مع أسرته من قريته "البروة". يعتبر درويش شاعر فلسطين الوطني. سجل تجاربه في المنافى المختلفة التي عاش فيها في القصائد التي نظمها والنصوص التي ألفها. نشر درويش أكثر من خمسة وعشرين قصيدة كما قام بنشر أحد عشر عملا نثريا بما فيه مجموعة مقالاته ويوميياته وما وصفه بالنصوص. كانت كتاباته متجذرة في الثقافة الفلسطينية العربية. عبر بكتاباته عن المأزق الفلسطيني المتجسد في تشريد ونفي أبناء شعبه وجسده بشكل مؤنس وبأسلوب غنائي مكثف وخاصة في كتابي "يومييات الحزن العادي" و "في حضرة الغياب".

ومن جهة أخرى ولد مريد البرغوثي قبل النكبة بأربع سنوات وحينما كان طالبا في مصر عام 1967م، قامت حرب حزيران أي النكسة ومنع من الدخول إلى أراضي وطنه ذاته وهكذا ضاع بلده. استمر هذا الحظر الاستبدادي لمدة ثلاثين عاما اضطر خلاله إلى العيش

في المنافى المختلفة مثل نظيره المواطن الشاعر محمود درويش. الأمر الذي غدا محركا لتسجيل تجاربه في سرديته السير الذاتية "رأيت رام الله" التي وصفها إدوارد سعيد الناقد الشهير بأرفع أشكال كتابة التجربة الوجودية التي نمتلكها الآن¹.

إن كتابات محمود درويش ومريد البرغوثي تمثل المحاولة اليومية للحياة الفلسطينية في المنفى كما تجسد تاريخ فلسطين ومعاناة شعبه المشرذ المستمرة. كانت هذه ردودا للكشف عن جرائم الاستعمار الاستيطاني من خلال سردياتهما، كما كانت محاولات لاستعادة هويتها ووطنهما. القاسم المشترك الذي يجري في كل من سردياتهما هو كونهما فلسطينيا في المنفى ومعاناتهما الحرمان والتهميش والنفي وإنكار الذات وتأكيد وجود والطموح إلى العودة وزيادة التحامهما بالوطن وهذا ما يميز أدب المنفى الذي يقوم فيه كتابه بالاستلهام من تشريدهم أدبا وشعرا ورواية ومذكرة وسيرة ذاتية للتعبير عن حالة الضياع والقلق وآلام الغربة والمنفى.

إن هذا العمل سوف يعتني بدراسة أدب المنفى في ضوء كتابات هذين الأدبيين ليس فقط ككونها دراسة في التاريخ الفلسطيني أو السيرة الذاتية بل أيضا ككونها أدبا يهتم باستخدامها لأنواع وثيمات بعينها وهناك حقل معرفي معروف بـ Exile Studies يعني بمعالجة الأفراد والجماعات التي قاست مرارة النفي في العالم الحديث وهو مصطلح مستقر في الدراسات الأدبية في الغرب ونظرا لأهمية هذه الدراسات وقلة تمثيلها في الأدب العربي اخترت هذا الموضوع الذي يوفر إطارا واسعا نعرض من خلاله أدب المنفى وخاصة الفلسطيني الذي يبرز معاناة كتابه في منافيهم ويسجل محتويات ذاكرتهم في اغترابهم متبعا لذلك المنهج التحليلي.

يعالج الباب الأول لهذا العمل مفهوم أدب المنفى وأبعاده النظرية بالدراسة في المعاجم العربية والانجليزية والإحالة إلى ما يرى فيه نقاد ما قبل وما بعد الكولونيالية من بول تابوري

¹ . رأيت رام الله، ص 1.

وماري ماكارثي وأندورغور وأشكروفت وفرانز فانون وهومي بابا وإدوارد سعيد وغيرهم الذين تشكل كتاباتهم عملا عظيما حول مفهوم المنفى وتعمل كأساس قوي لهذا الباب.

يتناول هذا الباب أيضا المنفى وانعكاساته في الأدب العربي والفلسطيني الحديث بالإشارة إلى بواكير ظاهرة المنفى في الأدب العربي القديم وبالتركيز الخاص على أنواع الكتاب الذين ذاقوا مرارة النفي والأعمال التي تعالج أشكاله المختلفة من منفى داخلي وخارجي ومزدوج ووجودي ولغوي كما يدرس الأعمال المعاصرة التي مثلت هذا الأدب بالنظر إلى جميع جوانب الأدب من الشعر والنثر.

يبحث الباب الثاني حياة محمود درويش ومريد البرغوثي وإسهاماتهما في الأدب العربي بالنظر إلى الأحداث المأساوية التي شكلت خطاب سردياتهما كما يبحث كبرى أعمالهما في الشعر والنثر.

يخص الباب الثالث وهو الأخير بالتحليل سردية رأيت رام الله لمريد البرغوثي وهي كتاب الثلاثين عاما من منفاه كما يسعى إلى الدراسة في كتابي "يوميات الحزن العادي" و "في حضرة الغياب" لمحمود درويش اللذين يحملان أصداء سيرته الذاتية. اهتمت في هذا الباب بالتمثيلات الأدبية للمنفى في هذه الكتابات والموتيفات والشيمات الخاصة بهذا الأدب التي تحملها كما ذكرت في النهاية آراء كبار الكتاب تجاه هذه الكتابات.

وأخيرا أشكر الله على أنه وفقني لإتمام هذا البحث ثم أتقدم بالشكر والامتنان إلى الأستاذ الدكتور محمد قطب الدين الذي شرفني بالإشراف علي دراستي هذه وكرمني بتوجيهاته القيمة خلال إعداد هذه الرسالة وأشكر جميع الأساتذة لما قدموه لنا وما زالوا يقدمونه داعيا الله لهم بدوام الصحة والعافية.

وبعدئذ أعرب عن عميق شكري للكاتب الأستاذ بجامعة مالطة الدكتور نوبارت بيوجيجا الذي أُرشدني عبر إيميالاته إلى المراجع المهمة في أدبيات المنفى. والشكر موصول كذلك لأخي

الأكبر صفي الرحمن الذي قام بتقديم مساعدات غالية في مسار هذا البحث كما أشكر جميع زملائي الذين وفروا أي نوع من أنواع المساعدة في القيام بهذه المقالة العلمية وأخص منهم بالذكر الأخ عبيد الله الباحث بجامعة دلهي والأخ الباحث بالفرع الهندي لجمعية إحياء التراث الإسلامي راشد حسن والأخ سعد الباحث بدراسات غرب آسيا بكلية الدراسات الدولية فإنهم مدوا يد العون كل حين وأن فجزاهم الله علي ذلك خير الجزء.

وقد بذلت في هذا البحث جهدي المستطاع للتجنب عن الأخطاء ولا كمال إلا لله، فإن كان فيه نقص وقصور فهو من قلة بضاعتي العلمية وإن كان فيه حسنة فهو من الله. وأخيرا أدعو الله أن يجعل هذا العمل المتواضع في خدمة اللغة العربية ويجعله منارا للسائل.

مطيع الرحمن

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لال نهرو - نيودلهي - 67

الباب الأول

أدب المنفى

هذا الباب يحتوي على فصلين وهما كما يلي:

- الفصل الأول : مفهوم أدب المنفى وأبعاده النظرية
- الفصل الثاني: المنفى وتجلياته في الأدب العربي
والفلسطيني الحديث

الفصل الأول

مفهوم أدب المنفى وأبعاده

التنظيرية

مفهوم أدب المنفى وأبعاده التنظيرية

المنفى ظاهرة قديمة وقد لا نكون مبالغين لو قلنا إنه قديم قدم الإنسان نفسه ويتواجد منذ اللحظات الأولى لتكون التجمعات السكنية صاحبها مجموعة من الأزمات و المشاكل التي تولد منها المنفى الذي عانى منه الفرد.

ولا ريب في أن الإنسان العربي، و خاصة الفلسطيني يواجه سلسلة متنوعة من المخاوف المتمثلة في سياسات القمع والتهجير والضغط السياسية ووآد الحريات وكلها ظروف تدفع الكثير من المبدعين والفنانين والفلاسفة والمفكرين والموسيقيين إلى الإرتحال عن أوطانهم نازحين أو مشردين ومهجرين، تصاحب هذه المخاوف التي يواجهها هذا الإنسان ألوانا من القهر والإكراه والتعذيب ومن هنا تلقى تجربة النفي هذه بظلالها على هذا الإنسان العربي والفلسطيني أينما حل وارتحل.

إن ظاهرة المنفى تعد جزءا من نسيج الحياة الثقافية والإجتماعية العربية وأبعادها تنعكس في كل مناحي الوجود الإجتماعي والثقافي وهي تأتي نتيجة لإكراهات شتى تتجلى في القمع التاريخي والسياسي والأخلاقي والتربوي والإقتصادي.

وللوصول إلى توصيف ملائم لمصطلح المنفى اقتضت المنهجية التحليلية التي اعتمدها دراستي هذه العودة إلى جملة من المعاجم والقواميس اللغوية العربية وغيرها لكي نتعامل مع اللفظة كما وردت فيها قصد الإطلاع على دلالاتها ومن ثم نتطرق إلى دلالاته التنظيرية التي طرأت عليه وجعلته يتباين ويختلف من كاتب لآخر.

التعريف بالمنفى لغة ودلالاته لمفاهيمية:

جاء في لسان العرب أن النفي هو إخراج الإنسان من بلده وطرده. وعرف عن العرب نوعان من النفي: نفي الزاني و نفي المخنث. "كان الزاني الذي لم يحصن ينفى من بلده

الذي هو فيه إلى بلد آخر وهو التغريب الذي جاء في الحديث. ونفي المخنث يعني أن لا يقر في مدن المسلمين". ففي هذه الرواية التي يوردها لسان العرب أن النبي "أمر بنفي رجلين اسمها هيت و ماتع وكانا مخنثين في المدينة"¹.

وورد في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي أن نفي الشيء يعني تنحيته ونفي الشعر أي ثار وذهب وشعت وتساقط والسيل ينفي الغطاء أي يحمله ويدفعه ونفيان السيل ما فاض من مجتمعه ونفي الرجل عن الأرض و نفيته عنها: طردته فانتهى³. قال الله تعالى "أو ينفوا من الأرض"⁴.

وجاء في تهذيب اللغة للأزهري : نفي ابنه أي جده وهو نفي منه. وانتقى فلان من فلان و انتقل منه إذا رغب عنه أنفا واستكافا. ونفت الريح التراب نفا و نفيانا: أطارته. والنفي: ما نفته. وفي الحديث: المدينة كالكير تنفي خبثها أي تخرجه عنها و هو من النفي الإبعاد عن البلد. يقال نفيته أنفيه نفا إذا أخرجته من البلد وطردته. ونفت السحابة الماء: مجته. والنفوة: الخرجة من إلى بلد⁵.

وجاء في المعجم الوسيط: نفي الشيء : زحاه و أبعده. يقال : نفي الحاكم فلانا : أخرجته من بلده و طرده. ونفيت الحصى عن الطريق، ونفى السيل الغطاء. ويقال نفت السحابة ماءها: أسالته و صبته. وناقاه: عرضه وبأينه. وانتقى: ابتعد. يقال : نفاه فانتهى. وانتقى الرجل: ابتعد عن وطنه مطرودا: والمنفى: مكان النفي. و النفي: خلاف الإيجاب والإثبات⁶.

¹ . صحيح البخاري، 82، كتاب اللباس ، رقم الباب 60، إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، دار طوق النجاة.

² . ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1997، ج 14، ص 247.

³ . الفراهيدي، كتاب العين، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الرابع، ص 253.

⁴ . سورة المائدة، 33.

⁵ . الأزهري، تهذيب اللغة، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967، ج 15، ص 475.

⁶ . مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، 1998، ص 506.

فالواضح مما أوردناه في معنى "النفى" و"المنفى" في المعاجم العربية أن هذه الكلمة ذات دلالات سلبية في الأغلب ولا تحتوي على أي معانٍ إيجابية ولكن هذا المعنى المعجمي الذي ترتبط به معانٍ معجمية مماثلة في لغات أخرى يتلون في الزمن المعاصر وخاصة في النصف الأخير من القرن العشرين بذلك المجازية حيث يحمل مدلولات أكثر كثافة وارتباطا بالوجود الفردي والجماعي مثلما ينأى من كونه شرطا تاريخيا سياسيا أو إقتصاديا ناجما عن الهجرة القسرية أو الإقتصاد العنيف لجماعات محددة أو شعوب وجماهير بحذافيرها والذي يدخله عندئذ في تعريف الهوية المنشقة والذات المنزوعة الأصل لعوامل مرتبطة بالتجربة الكولونيالية للجماهير المستعمرة في القرون الثلاثة المنصرمة.

فبعد النظر في المعاجم العربية المذكورة أعلاه توصلنا إلى نتيجة أن أغلب القواميس العربية تتفق حول معنى كلمة النفى و المنفى بكون الطرد والإبعاد والإقتصاء والنبذ و التنحية وهو عبارة عن عقوبة بإبعاد شخص خارج حدود بلاده لفترة غير محدودة.

أما المعاجم الإنجليزية فتصل الكلمة بدال الخروج مطلقا، فالمنفى Exile هو من يرغم على الخروج من بلده أو مدينته وبخاصة لمدة زمنية طويلة وكثيرا ما يكون عقابا. هذه الكلمة مشتقة من مادة Exsilium اللاتينية. ويضم مدلول الكلمة الإنجليزية Exile بين المنفى (المكان) والمنفى (الشخص) ويعني المقطع Ex الخروج مطلقا، إما الخروج من الوجود Existence (أي الموت) أو من الوطن أو من البيت. ولمصطلح المنفى - في الإنجليزية - حقل دلالي يدور في فلكه الكثير من الدوال والمفردات التي تشكل منظومة دلالية تدور جميعها حول فعل النفى بمفرداته المتفاوتة المختلفة. نأتي على ذكر بعض منها مثلا: Exodus (هجرة جماعية - نزوح) و Expelled (مطرود) و Displaced (مرتحل - مرحل) و Diaspora (الشتات، الدياسبورا: اليهود المشتتون في الأرض بعد الأسر البابلي لهم) و Deportation (ترحيل - نفى) و Exiled (منفى - مستبعد -

منبوذ) و Emigrant (مهاجر: من كلمة Emigration) و Alien (مغترب: من كلمة alienation) و Refugee (لاجئ: من كلمة refugation) وما إلى ذلك¹.

فالمنفى إذن إبعاد عن الوطن و نبذ و نزع للألفة هو منزلة بين منزلتين وزمكان مؤقت يقع بين زمكانين أحدهما ماض صيغت ملامحه في الوطن المبعد و الآخر قريب الحدوث في المستقبل القريب (الموت). هكذا يكون المنفى هو البرزخ أو هو ذلك الاستثناء بين الحياة والموت. هو الحياة البينية لكثرة كاثرة من البشر والفنانين والكتاب في مجتمعاتنا الحديثة وأما المنفى فهو المنبت الذي لا جذور له وهو الأبتري الذي لا يرجى منه خير والأنبياء كلهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليهم أجمعين) ذاقوا مرارة النفي و التشريد و تعرضوا لطلب اللجوء ومغاداة أوطانهم في بحث عن مأوى آخر عوضا عن بلده المفقود، مأوى يسوده العدل بعد أن ملأه الطغاة جورا وظلما.

والمنفي هو شخص ألغم على المغاداة أو البقاء والانتظار خارج حدود بلاده الأصلية على خلفيات الفرع المستمر والقلع المتواصل من الجور أو لعوامل متعددة أخرى من العرقية و القومية أو ما يقف من وجهة نظر سياسية، والذي يرى أن منفاه هو مؤقت يتمنى العودة إلى بلده الأصلي ما إن تسمح له الأوضاع ولكنه لا يقدر العودة ما دامت العوامل النابذة تستمر وتتواصل². وطبيعة وأوضاع المنفى تتصف بالإلغام والفردية وتختلف عن تلك التي هي للمهاجرين واللاجئين حيث إن المهاجر يرتحل بالطوعية من بلده الأم ولا يعتريه التوق للعودة. والمهاجر يتسم بأنه الضد النوعي للمنفين ويهدف أساسيا إلى أن لا يعود إلى مسقط رأسه ومع أنه يماثل اللاجئ في عدم السيطرة على

¹ . Chambers 21st Century Dictionary by Chambers, UK, 1999, p. 458

² . The Anatomy of Exile: A Semantic and Historical Study by Paul Tabouri, 1st edition (1972), George G. Harap & Co Ltd, London, p. 27

أوضاع ارتحاله تتغلب على المنفى ميزة الفردية وهو أكثر مقدرة على الإبداعية واتخاذ القرارات¹.

ومن هنا يشير مصطلح المنفى إلى شخص انفصل بطريقة غير طوعية عن موطنه أو بلده وأيضاً إلى فعل وحالة الانفصال و ظروف وفترة زمن الانفصال. تفرض الجوانب النفسية والتاريخية للحالة المنفية البعد الجغرافي والمادي حيث إن المسافة في الفضاء تفرض أثر المسافة في الزمن. ويكون المنفى محروماً من موطنه، الخلفية التي ترتب الأزمنة التي انصرفت وهذا يؤدي إلى تطور بنيات عقلية محددة وطرائق تعمل على ربط البون وتوسيع الجسور فيما بينها، والمنفى كذلك يكون هدفاً لجرعات من الشوق والتي تحمل ذكريات الماضي أقوى من الحاضر الواقعي ومن هنا يخلق ضياع الوطن الرغبة باسترداده إما بالعودة أو بذكريات الأيام الماضية ويصير الوطن أغلى وأثمن لأنه ضائع ويغدو عملة نادرة الوجود لأنه مفقود إلى آخر الدهر².

ولظرف المنفى صفات نوعية وميزات مؤقتة باقية عندما يسيطر عليه اليأس لأنه مستقر يكون متحركاً و موضوعاً للتغيير الذي لا يتأتى بالضرورة عن طريق تغيير الأوضاع التي تؤدي إلى المنفى ولكنه أيضاً يمكن أن يحصل على مستوى المنفى وتنتهي فترته بالعودة. وهذا يحصل أيضاً من خلال وعي المنفى ومعرفته بمعنى الوطن حيث إنه ما إن ينقطع عن التفكير بالعودة ويشعر باسترساء الأصول، تبلغ أوضاع المنفى إلى نهايتها وفي هذه النقطة يمكن إعادة تعريف المنفى ليرشد إلى معنى المهاجر ولكن ينتقل المهاجرون لو قارناهم مع المنفيين إلى أمكنة جديدة مع اتخاذ مرمى جلي وهو الاستقرار والإقامة. والمنفى وإن كان يضم معنى الانفصال عن البلد و عدم الاستمرارية والديمومية فإن الهجرة تحمل فكرة متغيرة للفرد عن وطنه وبلده ويتكون الموضوع الرئيسي لدى

¹. Mary Mc Carthy, A Guide to Exile, Expatriates, and internal Émigrés, Faber & Faber, London, p. 54, edited by Paul Morris in "On coming home".

². Andrew Gurr, Writers in Exile: The identity of home in modern literature, Atlantic Highlands, New York, Humanities Press, pb.1981, p. 10.

المهاجرين التوطين لا العودة وتكون في الواجهة مشاكل اندماج الإنسان ببلده الجديد واعتقاده كوطن وتصير بعض الفروقات بين المهاجرين و المنفيين مبهمة وملتبسة حيث إن الفترات البدائية من الهجرة يحتمل أن تكون مماثلة للمنفي لأن المهاجر يمكن أن يتذكر بلده الأسبق مع رغبة ولوعة وشوق متراود للعودة إلى وطنه والمنفي قد يتكيف مع بلده الوقتي اضطرارا و إكراها.

تشكل حالة وجود غير متواصلة هي شرط المنفي والتي تؤدي إلى أزمة في الهوية ومن هنا نجد أن التغيرات ضمن البيئة العانقة تتمخض عن تغيير في إطار المرجعية الذي تتكون به هوية الفرد وتثبت كما يقول لويد كرامير في مناقشة ما جرب المثقفون الأجانب في القرن التاسع في باريس:

"يشكل المنفي تحديات تعلق بمقاسها الهويات الثقافية والاجتماعية للأفراد لأنه بالأغلب يفرض تغييرات نفسية أساسية ويمكن لتجربة الحياة بين أفراد شعب غريب ولغات متباينة ومؤسسات مختلفة أن تغير شعور النفس بفراديتها الفريدة بمقدار مشابه لأي صدمة يعتنى بها علماء التحليل النفسي، والمرجعيات التي يعى بها الناس أنفسهم تتغير بصورة دراماتيكية عندما يتحقق عزلهم عن هويتهم الوطنية وشبكة علاقاتهم العائلية المنزلية"¹.
وعندما يسعى المنفي بالتكيف مع جوه الجديد يمكن أن يعترب عن ذاته ويمكن للانقطاع الظاهري أن يلقي بانعكاساته على انقطاع عميق في البنية الباطنية ومن هنا لا يحس المنفي بأنه يشبه ذاته كما هو الحال في الغابر وأيضا لا يستطيع الدخول في حالة انضباط مع الوقت الحالي والمنفي يكون في مرحلة أو بأخرى في غربة عن مصيره ويستمر بشكله الظاهري في الاعتناء بذاته من الباطن إما انتقادا لبنيته الباطنية الخاصة أو يغلب عليه الشوق لها².

¹ . Lloyd S. Kramer, Exile and European thoughts, Historical Reflections, vol. 11, No. 1 (spring 1984) pp 46-48

² . Robert Edward, Exile, Self and Society from Exile in Literature ed: Maria-Ines Lagas-Pope, Lewisburg Bucknell University Press, Routledge, London, p.15

مر عدد كبير من الكتاب المؤثرين والمعروفين بتجربة المنفى في الأزمنة الحديثة وكما تفيد ماريا إينيس لاغوس بوب في كتاب (Exile in Literature):

"إنه شئ له معنى ولم يتحقق صدفة أننا نشاهد عددا كبيرا من المنفيين بين القسط الأكبر من الفائزين بجائزة نوبل في الآداب" وتجربة النفي هذه هي التي تدور حولها أدبيات المنافي التي يكتبها المنفيون لأنها تكون نتيجة من نتائج محاولة تصعيد الأحاسيس¹.

فالمنفى لا بد وأن ينظر إليه في اتجاهين مختلفين كما ينظر إليه منظرو ما بعد الكولونيالية فهناك منفى مفروض على الجماعات الثقافية والعرقية كما أن هناك انتقالا لأعداد جسيمة من موظفي الإدارات الكولونيالية والجنود بالإضافة إلى بعض الرحالة الذين قادتهم تجربة الاستعمار لاستكشاف الأراضي الجديدة و الكتابة عن طبائع شعوب الشرق فمفهوم المنفى له طبيعة عويصة حيث إنه يحمل طبيعة مفروضة ومرغوبة ومن هنا نجد أن نقاد ما بعد الاستعمار يميزون بين المنفى والاغتراب حيث إن الأول يكون مفروضا لا يستطيع فيه الشخص العودة إلى بلده الأصلي وإن اشتاق إليها والثاني اختياري يتولد من إرادة المرء في ترك بلده الأم لأي عامل من العوامل لكن هذا التفريق لا يحمل الدقة التامة فهناك تداخل يربط هذا المفهوم وذاك وبالإمكان لي هنا الإشارة إلى التجربة الفلسطينية التي تضم ألوانا كثيرة من الابتعاد الجبري والنفي القاسي والإبعاد وفي بعض الأحيان، الاغتراب عن البلد الأم لأن الفلسطينيين قادتهم الشروط السياسية والثقافية والاجتماعية إلى خارج البلد الأم في أوضاع عويصة جدا خلال رحلات الشتات الفلسطينية المتواصلة وبيد أن الفلسطيني يعتبر المنفى بتميز إلا أن سياقات نفي متعددة

¹ . Exile in Literature, Maria-Ines Lagas-Pope, Lewisburg Bucknell University Press, Routledge, London, p.7

تحقيق بالتجربة الفلسطينية مما يؤدي إلى جعل مفهوم المنفى معقدا وحاجة النظر إليه من نواحي متباينة وعدم الاقتصار على المعنى اللغوي للمنفى الذي يحمل دلالات سلبية¹.

لكن ما يجعل هذا العمل صعبا هو رسم شبكة لمعنى المنفى في داخل هذه الأوضاع العويصة من الشتات والنزوح والتهجير والتشريد والنفي والارتحال الطوعي والاغتراب طلبا للحرية أو قصدا لتحسين ظروف المعيشة. ففي وقت كان الارتحال انفراديا في العصور المنصرمة أو منطويا على مجموعات قصيرة أصبح هناك مجتمعات شتات بكاملها تترك أوطانها الأصلية بصورة طوعية أو إكراهية وأرغمت بعضها لا على مغادرة بلادها الأم فحسب بل على التجرد عن لغتها وثقافتها الأصلية لتصير جزءا من المجتمعات الحديثة أمثال الإفريقيين الذين يقومون بالعيش في فرنسا و الولايات المتحدة والهند الذين يعيشون في المملكة المتحدة ومن هنا نجد أن الأدب الذي ينتجه هؤلاء وأولئك لا يلبث إلا وتكون مهجنة لاتخاذهم من لغات غير لغتهم الأم أداة للتعبير عن ذواتهم.

وفي هذا الإطار يجد الفلسطينيون أنفسهم بعد اضطرارهم إلى الانتقال من بلدهم بعد احتلال وطنهم الفلسطيني و قيام إسرائيل بشن حرب لا رحمة فيها لتفريغ فلسطين من مواطنيه العرب الشرعيين. الأمر الذي أرغم الفلسطينيين على الهجرة إلى بلاد أخرى والإقامة فيها كالشتات أكان في داخل المجتمعات العربية أو خارجها أو كجزء من كيان دولة أخرى صاروا على مر الدهور يقيمون فيها حياة مهمشة.

يتذكر إدوارد سعيد في كتابه "After the last sky" وضعيته كمنفى بكل من المعنى الثقافي والسياسي ويوضح لقارئه الأجانب كيف صار منفيا مع عائلته من بلده الأصلي وما ترتب عليه هذا الحادث بالنسبة له وللفلسطينيين الآخرين وهو يقول:

¹ . Asharoft (Bill) Goreth (Griffiths) Helen (Tiffin), Key Concepts in Post-Colonial Studies, Routledge, London, 1998, p. 92.

"لقد تبخر من حياتي وحياة الفلسطينيين جميعا ثبات الجغرافيا وامتداد الأرض وحتى لو لم يوقفنا أي منهم على الثغور ولم يقم بسوقنا إلى مخيمات جديدة أو منعنا من الدخول أو الإقامة أو السفر من منطقة إلى أخرى فإن بلادنا يحصل احتلالها ويتم التدخل من قبل الآخرين في حياة كل منا بشكل اعتباطي يمنع أصواتنا من الوصول إلى بعضنا البعض. تقيد هويتنا وتحبس في جزر صغيرة مروعة داخل بيئة غير مضيافة تحكمها قوة عسكرية تستعمل رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة العرقية الصافية"¹.

في الفقرة السالفة الذكر شرح لنا إدوارد سعيد كيف المنفى يقيد الهوية ويمحوها وهذا هو الذي يعد من بين العلامات الدالة على أدبيات المنفى والدوافع التي تكرر نفسها في نصوص أدب المنفى والذي يتمحور حول هذه التجربة الوجودية العويصة العسيرة وهذا هو السبب الذي علنا نجد وراء الأدب الفلسطيني كونه من أكثر الآداب العالمية تطورا وتكونا داخل بوتقة المنفى ومن هنا لا نستطيع أن نرى الأدب الفلسطيني إلا بمنظار أدب اغتراب ومنفى ومحاولة للاحتفاظ بالهوية التي تواجه المخاطر والتهديدات. يقول محمود درويش في قصيدة له "عاشق من فلسطين" والتي يمكن أن ننظر إليها بوصفها مجازا لانكسارات المنفى وانقطاعاته:

ولكنني أنا المنفى خلف السور والباب

خذيني تحت عينيك

خذيني أينما كنت

خذيني كيفما كنت

أرد إلى لون الوجه والبدن

¹ . Edward Said, After the Last Sky, Faber & Faber, London, 1986, p. 19.

وضوء القلب والعين
وملح الخبز واللحن
وطعم الأرض والوطن
خذيني تحت عينيك
خذيني لوحة لوزية في كوخ حسرات
خذيني آية من سفر مأساتي
خذيني لعبة، حجرا من البيت
ليذكر جيلنا الآتي
مساربه إلى البيت¹

ويبدو أن القصيدة السابقة من بواكير تجربة محمود درويش الشعرية وإرهاصاتها الأولى وهي مكتوبة في الفترة التي يسبقها خروجه من وطنه الفلسطيني والتحاقه بالمنفيين من أهل بلده إذ أن درويش يجعل من صوت المتكلم في قصيدته طرفا من جوقة أصوات الفلسطينيين جميعا الذين يعيشون في المنفى وكتب شعره داخل البلد الأم بوعي المنفى السرمدي ويدرك في الوقت نفسه أن بقاءه على وطنه لا يخليه عن شعور المنفى لأنه مجتث ومهجر على أرض بلده الأصلي وفي ذلك ما يلمح إلى هوية أدب المنفى العسيرة و فيه ما يفتح إمكانية إنتاج أدب المنفى من قبل المقيمين لأن الهوية والعرقية والوطنية كونها عرضة للتهديد والخطر هو الذي يعين معنى أدب المنفى وخطورته بالنهاية.

وهناك علاقة بين الغربية والمنفى في اللغة العربية خاصة حينما نتحدث عن أدبيات المنفى كما نجده في أعمال الفلسطينيين ففي "سريير الغربية لدرويش نجد قصائده في الحب جميعا تشدد على فكرة الغريب الذي تفكر بغريبة تريحه من آلام غربته ومن

¹ . محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2005، ط1، ص 92.

إحساسه بالفرقة في ديار الأجانب. الوحشة التي تجعله يشعر بأن الأرض لم تعد ثابتة تحت قدميه ومن هنا لا يقدر الحب ولا شيئاً سواه على أن يسكن آلام منفاه الأزلي لأن المنفي لا يستطيع أن يغير مسلك منفاه ومساره إذ إنه وإن رجع إلى بلده الأم فإنه يبقى في غربته. الأمر الذي دفع بدرويش في محاولة تعريفه بهوية الغريب الأزلي إلى التساؤل "من أنا دون منفي".

غريب على ضفة النهر
كالنهر.. يربطني باسمك الماء
إلى نخلتي لا السلام ولا الحرب
لا شيئاً يدخلني في كتاب الأناجيل
لا شيئاً... لا شيئاً يومض من ساحل الجزر
والمد ما بين دجلة والنيل
لا شيئاً ينزلني من مراكب فرعون. لا شيئاً
يحملني أو يحملني فكرة: لا الحنين ولا الوعد
ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل من دون منفي
وليل طويل يحدق في الماء
يربطني باسمك الماء
لا شيئاً يأخذني من فراشات حلمي إلى واقعي
لا التراب ولا النار
ماذا سأفعل من دون ورد سمرقند
ماذا سأفعل في ساحة تصقل المنشدين بأحجارها القمرية
صرنا خفيفين مثل منازلنا

في الرياح البعيدة
صرنا صديقين للكائنات الغريبة
بين الغيوم

وصرنا طليقين من جاذبية أرض الهوية
ماذا سنفعل... ماذا سنفعل من دون منفي¹

تلخص القصيدة السابقة مغزى الشعور بالمنفي ويقين المنفي بأن رحلته وتيهه هي التي أصبحت حياته مطبوعة عليه إذ إن هويته هي المنفى ولا يستطيع أن يعكس ويقلب مسار منفاه بالحنين و الوعد.

وفي إطار يعطي سياقاً لتفسير رؤية درويش للمنفى في أشعاره يقول سعيد: "إن صورة المنفى بالنسبة لي هي تحمل أهمية قصوى لأنك في لحظة من اللحظات يتحقق لك أنك لا تستطيع عكس مسار منفاك وإذا فكرت به بهذا الاتجاه فإنه سيصير صورة شديدة القوة حقيقياً لكنك لو فكرت بأن المنفى يمكن أن يرجع و يتخذ بيتاً له فهذا غير مرادي لأن المنفى لي هو حالة دائمة من الغربة والابتعاد والإقامة في هوامش المجتمع و حوافه حيث إنه هجرة متواصلة لا يمكن للمنفي تقليبها"².

فالمنفى رغم كونه نتيجة وحصيلة لتجربة غائرة من فقدان الوطن و ضياع الهوية يتحول إلى كونه عبارة عن السقوط المتواصل في قاع اللاعودة وبئرها. فهو انفصال عن الأرض المتينة التي كانت تهئ المرء الهوية ومثانة الشعور بالطمأنينة والأمن حيث إن المنفى هو مجتث عن أصوله، عن ماضيه وأراضيه لا دولة له ولا جيش لكنه دائماً يبحث عن

¹ . درويش، محمود، سرير الغريبة، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1999، ط1، ص 46.

² . Power, Politics and Culture interviews with Edward W Said, Edited by Gauri Viswanathan, Vintage Books, New York, 2002, p. 53.

أرض ذات جيش مستقل لها. الأمر الذي يدفع بالمنفيين بشكل ماس إلى إعادة صياغة حياتهم المهلكة عن طريق النظر إليهم كجزء أمة حية ظافرة.

يصف إدوارد سعيد في كتابه "المتقف والسلطة" المنفى بأنه من أكثر المصائر إثارة للأحزان مقارنة بذلك بين المنفى ما قبل العصر الحديث والمنفى المعاصر ويقول "إن الطرد والنفي في الزمن القديم كان عقابا مهولا للشخص التي يتعرض للنفي لأنه كان مصحوبا بأعوام من التيه الذي لا مرام له ابتعادا عن العائلة والأماكن التي أنسها الواحد كما أن هذا العقاب كان يعتبر نوعا من التشريد وعدم الإحساس بالسكون والطمأنينة في أي مكان من الأماكن. وحين يوازن إدوارد معنى المنفى في الزمن الحالي بذلك الذي كان في الغابر يشير إلى صيرورة المنفى من معاناة شخصية إلى معاناة جماعية أثرت شعوبا واعرقا بأجمعها ويمثل سعيد على ذلك بهجرة الأرمن والفلسطينيين من أوطانهم عن طريق التهجير والتشريد والنفي الإجباري ويؤلف إدوارد بذلك المنفى الحديث بين معاناة شخصية معاصرة ومعاناة الاقتلاع التي أتى بها الاستعمار لجماهير برمتها¹.

ثم يتابع سعيد بالقول بأن المنفي يقضي حياته في حالة أنه غير منسجم مع مكان إقامته الجديد ولا يستطيع في نفس الوقت التخلص من مكانه الذي عاش فيه قديما. فهو إذا محصور في حالات الانفصال والابتعاد بشكل يشعر بالحنين المفرط من جانب ومن جانب آخر بقدرته على أن يكون منبوذا سريرا ومقلدا ماهرا لأبناء المكان الجديد².

فانطلاقا مما أتينا على ذكره نستطيع القول بأن نزعة ما بعد الحداثة انطوت على دلالة عميقة متمثلة في إدراكنا أن التخوم التي يستقر مقامها عند الحدود المعرفية للمركز

¹ . المتقف والسلطة، إدوارد سعيد، ترجمة، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص92.

² . نفس المصدر، ص 92.

تحتوى أيضا على نقطة البداية إذ يحدث عندها مجموعة من أصوات الشعوب المحتلة والهجرات المتتالية فى عصر ما بعد الاستعمار وكتابات المنفى والشتات واللاجئين.

وهناك كتاب آخرون يصفون أدب المنفى بأنه أدب اللاستتناس فالمنفى هو شخص لا ملجأ له فى عالم الكولونىالية وما بعدها حيث إن فرانز فانون يعد أدب المنفى انسحابا نرجسيا من العالم إلي شرنقة الذات ففانون يعرفه بشكل يقربه أكثر من المجازية ويبعده عن كونه ناشئا من الهجرة الجبرية من الوطن¹. الأمر الذى يوضح لنا أن مفهوم أدب المنفى قد خضع لتحولات تنظيرية عديدة خلال النصف الأخير من القرن العشرين. ومن هنا يمكننا القول بأن فهم هذا الأدب يتطلب إماما بتحويلات المفهوم وتعديلاته وما أضافه الكتاب من بول تابورى وماري وماكارثي وأندور غور وأشكروفت وفرانز فانون وإدوارد سعيد وهومى بابا وغيرهم من نقاد ما بعد الكولونىالية هو حاسم لفهم هذا الأدب ودلالاته التنظيرية وقراءته بوصفه أبرز المواضيع الأكاديمية فى قرننا هذا.

¹ . Nation & Narration, Edited by Homi K. Bhabha, Routledge, London and New York, 1990, p. 291.

الفصل الثاني

المنفى وتجلياته في الأدب العربي

والفلسطيني الحديث

المنفى وتجلياته في الأدب العربي والفلسطيني الحديث

قبل أربعة عشر قرنا أو أكثر نفي إمرؤ القيس وطرده من قبل والده الملك فخرج في جماعة من أخلاط العرب يرتادون الرياض والغدران فإذا صادفوا غديرا خيموا عليا وبدؤا يلعبون ويصيدون ويعاقرون إلى أن يكون قد نضب الماء وذوي العشب تحولوا عننا إلى غيره ولم يزل تلك حالنا حتى أتاه نعي أبينا وقد قتلنا بنو أسد الذين كانوا مجموعة من رعاياه فعاد القيس للانتقام منهم لقتل والده قائلا، "ضيعني أبي صغيرا وحملني دما كبيرا، لا صحو اليوم لا سكر غدا. اليوم خمر، وغدا أمر" وأقسم أن لا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن حتى يثأر لأبينا ولما أجننا الليل شام برقا وقال:

أرقت لبرق بليل أهل يضيئ سناه بأعلى الجبل

أتاني حديث فكذبنا بأمر يززع سنا القل

بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جل¹

لكن إمرؤ القيس لم يستطع الثأر لأبينا لتخاذل بني بكر وتغلب عننا وقضى بقية حياتنا بعد ذلك في المنافي المختلفة فرارا من مكان إلى آخر يكتب الشعر ويطلب الدعم والنجدة لاستعادة عرش والده.

¹ . الزيات، احمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص 46-48.

يناقش العلماء ما إذا كان أي من القصص عن حياة امرئ القيس صحيحا لكن
إمرؤ القيس مع ذلك يعتبر أكثر الشعراء القدامى شهرة في اللغة العربية وأفضل من كان
هناك من الشعراء في الفترة ما قبل الإسلام. إن حزن إمرؤ القيس في قوله:

قفا نبك من نكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل¹

رجع صوته وردد صداه خلال الألفية والنصف الأخيرة وصولا إلى الكتاب العرب المنفيين
أمثال محمود درويش كاتب في "يوميات الحزن العادي" و"في حضرة الغياب" ومريد
البرغوثي كاتب "رأيت رام الله" و "ولدت هناك، ولدت هنا" وجبرا إبراهيم جبرا كاتب "البحث
عن وليد مسعود" و "صيادون في شارع ضيق" و "السفينة" و "البئر الأولي" وغيرها وإميل
حبيبي كاتب "الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" وغسان كنفاني كاتب
"رجال في الشمس" وإبراهيم نصر الله كاتب "طيور الحذر" وغيرهم من الأدباء الذين
تعرضوا لهذا الإقصاء والإبعاد مثل نظرائهم في فترات مختلفة من الأدب العربي.

كانت الهجرة والترحيل والإبعاد والفصل العرقي والتشريد منذ فترة طويلة مواضيع
الأدب العربي. وكان موتيف المنفى الجماعي أو فقدان الجماعي للوطن جزء منفصلا
ولكن متداخلا من المشهد الخيالي المشترك. تظهر هذا الأمر بشكل جديد واتخذ قوة
جديدة بعد سقوط غرناطة عام 1492.

وبعد ذلك أجبرت موجات من اليهود والمسلمين وغيرهم على الفرار مما كان خلافة
قوية ومتنوعة والتي سكنها بعض أهم أدباء وكتاب الأدب العربي من ابن عبد ربه وابن
زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ولسان الدين الخطيب.

¹ . المعلمات السبع، برواية الأنباري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود، الكويت، 2003، ص 15.

إن هذين الموضوعين - المنفى الشخصي والجماعي - بقيا ولم يزلتا فكرة مهيمنة ومتكررة طوال مئات السنوات الماضية من الأدب العربي ولكن انتقلا في القرن الماضي من الحد الهامشي إلى مركز النقاش الأدبي.

أكثر من أي شيء آخر كان طرد ونفى أكثر من 700,000 فلسطيني هو الذي أثار اهتمام الأدب العربي الواسع بالمنفى ومع ذلك كانت الحقبة الاستعمارية الغربية قبل ذلك قد استرعت الانتباه إلى الشعور بالضياع الجماعي.

كان الأدب الشعبي مثل شعر محمود سامي البارود (1839-1904) وأمير الشعراء أحمد شوقي (1868-1932) والروايات التاريخية لجورجي زيدان (1861-1914) متميزا بهذه الخسارة المشتركة. وكان البارودي قد نفى إلى سرانديب وأحمد شوقي إلى جنوب أسبانيا. كتب شوقي هناك قصيدة الرومانسية "أميرة الأندلس" وفي الوقت نفسه سجل جرجي زيدان سقوط إمبراطورية اسبانيا الإسلامية في رواياته التاريخية التي حظيت بالشعبية الواسعة عبر الدول العربية.

كان ما ذكرناه أنفا هو ردودا أدبية لفقدان إمبراطورية عربية إسلامية وكانت في جزء منها هادفة إلى تجديد الهوية الجماعية للأدب والتعليم والعلوم والصناعة حيث إن هذا الارتباط في حالة العديد من الكتاب في أواخر القرن التاسع و أوائل القرن العشرين الذين رأوا أنفسهم جزءا من النهضة العربية أو النهضة كان صريحا.

ولكن بعد عام 1948، تحول مكان المنفى في الأدب العربي واضطر الأدب العربي للتصدى لتغيرات كبيرة في العالم المحيط به بما في ذلك صدمة الجماهير

الفلسطينية التي أجبرت على ترك منزلهم ومن هنا قام المؤلفون الشبان ومنهم محمود درويش ومريد البرغوثي بخلق وطن للأدب وأدب الالتزام والمقاومة.¹

يمكن - وقبل الدخول في تداعيات نكبة فلسطين ونكستها عام 1948 و 1967 علي التوالي علي الأدب العربي عامة والفلسطيني خاصة وما خلقت من أحاسيس مزيجة بالتشرد والغرائبية التي نتجت عن كتابات عديدة أسهمت بشكل كبير في أدبيات المنفى - إلقاء نظرة عليهما وإعادة زيارة أحداثهما التاريخية التي سببت هزات نفسية وجسدية مدمرة.

نكبة فلسطين

قامت الدول العربية في أعقاب انتهاء الإنتداب البريطاني وبعد صدور قرار التقسيم لفلسطين من قبل الأمم المتحدة بإرسال جيوشها لمقاتلة قوات إسرائيل المحتلة مما نتج عن حرب عام 1948.

تمكنت إسرائيل في هذه الحرب من هزيمة الجيوش العربية ومن الاستيلاء على مساحة واسعة من أراضي فلسطين وإقامة الكيان اليهودي عليها. أسفرت هذه الحرب عن كارثة إنسانية هائلة حيث أدت إلى تشريد الآلاف من الشعب الفلسطيني عن أراضيهم و بلادهم وتدمير الكيان السياسي والاقتصادي لهم وتسببت بانتقال مسرح نشاطهم الرئيسي إلى خارج الأراضي الفلسطينية ووقوع نحو 165 ألف عربي فلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي.

قامت العصابات الصهيونية بتدمير 478 قرية من أصل 585 قرية كانت قائمة قبل الحرب وارتكبوا 340 مجزرة خلال حرب 1948 بمدنيين فلسطينيين في أثناء عملية التهجير والتشريد الذي ذهب ضحيتها قرابة 58% من الشعب الفلسطيني الذي شرد بالقوة

¹ - 71 pp (Journal) , issue/ 12 volume/1 2013- Writing Palestinian Exile, Habib, Dr. Maha F, Holy Land Studies

إلى خارج الأرض بينما شرد 30 ألفا آخرون في داخل الأرض المحتلة نفسها ومن هنا مزقت هذه الحرب النسيج الاجتماعي والاقتصادي للشعب الفلسطيني الذي وجد نفسه مشردا في العراق¹.

ونتيجة لهذه الأحداث تشتت العرب الفلسطينيين في دول مختلفة ويمكن انقسامهم إلى ثلاثة فئات.

الأولى: هي عرب الأرض المحتلة وهم العرب الذين بقوا في الأماكن التي وضعت تحت الاحتلال ولم يهاجروا من تلك المناطق.

الثانية: اللاجئون الفلسطينيون وهم العرب الذين أجبرتهم المجازر الصهيونية على النزوح عن أراضيهم واللجوء إلى ما جاورهم من المناطق سعيا لأمن الأطفال والشيوخ والنساء وتأمين الحماية وانتظارا للعودة إلى بيوتهم مع انتهاء الحرب إلا أن تطور الظروف السياسية والعسكرية في فلسطين أرغمهم على البقاء في المناطق التي لجأوا إليها والتي ضمت الضفة الغربية وغزة وشرق الأردن ولبنان وسوريا حيث اتجهت قلة قليلة إلى مصر والعراق وهذه هي الفئة التي ينتمي إليها محمود درويش التي لجأت عائلته إلى جنوب لبنان في أعقاب قيام العرب ووجد نفسه مع عشرات اللاجئين في المخيمات هناك.

الثالثة: سكان قطاع غزة والضفة الغربية الذين نجت أراضيهم من الاحتلال الإسرائيلي ولم يضطروا إلى مناطق أخرى ولكن شهدت منطقتهم هجرة واسعة إليها من الأماكن الفلسطينية المتضررة بالحرب والاحتلال.

وهكذا أصبحت قضية الشعب الفلسطيني قضية لاجئين ومنفيين ومشردين ومهجرين بعد أن استقروا في وطنهم الشرعي طوال أربع آلاف وخمسمائة سنة ماضية¹.

¹ د. محسن محمد صالح، القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، مركز الزيتونة، بيروت، 2012، ص 61.

حرب حزيران/ نكسة فلسطين

حرب 1968 والتي تعرف بنكبة حزيران أو حرب الأيام الستة هي صدامات عسكرية حصلت بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا والأردن وبدعم لوجستي من لبنان والعراق والجزائر والسعودية والكويت في فترة مابين الخامس من حزيران والعاشر منه سنة 1967م والتي تمخض عنها احتلال إسرائيل شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان وقطاع غزة والضفة الغربية. استمرت هذه الحرب لستة أيام و نتجت عن مقتل 25000 عربي مقابل 800 إسرائيلي وتدمير 70-80% من الأعتدة الحربية للبلدان العربية.

وكما أفاد مؤرخون عرب وفلسطينيون فقد شنت القوات العسكرية الإسرائيلية هجوما مباغتا على الدول الثلاث من مصر وسوريا والأردن حينما لاحظت إسرائيل أن القوة العسكرية العربية بدأت تتعاضم. فمن ثورة 14 تموز عام 1958 في العراق إلى انتصار ثورة الجزائر عام 1962م إلى حين قيام منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964 في شهر أيار الذي كان أبرز العوامل في دفع إسرائيل إلى الإسراع بشن هذا الهجوم حيث تزايدت العمليات الفدائية الفلسطينية انطلاقا من 35 عملية ووصولاً ب41 في غضون خمسة شهور أولى من سنة 1966 حيث شنت إسرائيل حرباً مباغته لوضع حد من أي أمل للتضامن العربي الفلسطيني².

أدت هذه الحرب إلى تدمير القوات العسكرية لمصر وسوريا والأردن واحتلال إسرائيل لما تبقى من أراضي فلسطين أي الضفة الغربية وقطاع غزة واحتلالها لسيناء المصرية وجولان السورية وسيطرة الكيان الإسرائيلي على منابع مياه الأردن وفتح مضائق تيران وخليج العقبة للملاحة الإسرائيلية كما فتحت باب الاستيطان في القدس والضفة الغربية.

¹ . أثر الاعتراف بالدولة الفلسطينية على مسؤولية إسرائيل عن جرائمها بحق الشعب الفلسطيني (دراسة تحليلية) ، فارس رجب الكيلاني، جامعة الأزهر، غزة، 2013، ص 11-12

² . د. محسن محمد صالح، القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، مركز الزيتونة، بيروت، 2012، ص 81.

المروع في هذه التداعيات الحربية الكارثة الإنسانية التي خلفتها هذه الحرب الهائلة حيث نتجت عن تهجير معظم مدن قناة السويس وكذلك تهجير معظم مدنيي محافظة القنطرة في سوريا وتهجير عشرات الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني إذ تعرض نحوه 330 ألف فلسطيني للتشريد كما أسفرت عن محو قرى بكاملها¹.

أدى النزوح الفلسطيني عام 1948م إلى نفي جماعي ولأجل غير مسمى. اقتلع أكثر من نصف سكان من منازلهم وقراهم ووطنهم. أصبحت حياتهم منذ أي وقت مضى منذ نزوحهم عام 1948م عبارة عن حالة مستمرة من المنفى وتكراره بأشكال مختلفة من إعاقة الانخلاع الجسدي إلى التهميش ومنه إلى الإنكار الكامل بالذات.

إن تجربة الفلسطينيين للمنفى هي خصيصة من خصائص التمثيل الخرائطي التاريخي والثقافي والزمني الذي هو ذو طابع روحاني. ينظر الفلسطينيون إلى النكبة، كارثة 1948 كرمز لنهاية الحياة ما قبل 1948 حيث ساء فيه هدوء نسبي وتجربة الطرد والحياة في المنفى. تمثل النكبة الحياة المفقودة والهجرة الجماعية والطرده القسري إلى التيه والضلال. إن الفلسطينيين المتشردين في جميع أنحاء العالم بل في العالم كله تجرهم النكبة لفهم ماضيهم وإعلاء تجديد حاضرهم والعمل على تحقيق تطلعات مستقبلية.

وكما كانت النكبة الفلسطينية عام 1948 بما أحدثت من هزات في الجسد العربي و الفلسطيني أول حدث يمكن وصفه بكل قحة بأنه نقطة تحول في الألب العربي الحديث بما فيه ألبات المنفى فقد مثلت النكسة عام 1967 حدا فاصلا بين زمن شهد إراكا مفعجا للذات وعم فيه اليأس والقلق والاضطراب العام والشك العميق علي الشعب الفلسطيني وزمن بحث فيه الكتاب عن أشكال خيالية لإعلاء بناء تاريخهم والتعبير عن هويتهم رافضين حلم التاريخ المروع.

¹ . حرب حزيران 1967، الموقع: مركز المعلومات الوطني الفلسطيني-فا.

في حين تبدأ معظم تجارب الشتات بنهاية الاستعمار حيث هي تشكل أثرا أو نوعا من آثار الاستعمار فالهجرة الفلسطينية هي تجربة بداية الاستعمار الذي يحتفظ بالسيطرة على أراضيهم وتمثيلهم وحياتهم ومصيرهم. ومع ذلك فإن تجربة المنفى في الحالة الفلسطينية بدلا من جعلها الإنتاج الثقافي راكدا تفتح طريقا للتعبير والتطور والإصرار على البقاء الاجتماعي والثقافي والتاريخي إذ تتحول تجربة المنفى إلى مساحة من التحدي والإبداع والمقاومة¹.

نجد أن هناك كثيرا من الكتاب والكاتبات الذين مارسوا ظاهرة المنفى سواء بطرق مباشرة من خلال معالجته كثيمة أساسية من حبكة كتاباتهم المركزية أو إكتفاء بالإشارات الضمنية إليها أو بطرق أخرى. فهناك كتاب عانوا تجربة المنفى أو تعرضوا للإقصاء عن إمكانهم أو ذاقوا مرارة مغادرة أوطانهم لسبب من الأسباب وتعالج كتاباتهم هذه التجربة بطرق فنية سواء بطرح المنفى بطرق مباشرة أو الإكتفاء بمجرد إشارات ضمنية إلى تجربة المنفى في أعمالهم مثل أجنحة الغبار لجمال محجوب والحب في المنفى لبهاء طاهر وذاكرة الماء ومحنة الجنون العاري لواسيني الأعرج ورأيت رام الله وولدت هناك وولدت هنا لمريد البرغوثي ومثلث الدائرة لسعدي يوسف والثلج يأتي من النافذة لحنا مينة وعودة الطائر إلى البحر لحليم بركات وغيرها.

هناك كتاب خبروا تجربة النفي في فترة من فترات حياتهم على مستوى الواقع الفعلي وتعالج أعمالهم هذه القضية إما بطريقة تجعل من عمل النفي محركا لسلوك الشخصيات وحافزا للفعل السردى أو بطريقة تجعل عمل النفي فعلا مضمرا يخفي في البنية العميقة للنص الكتابي. الأمر الذي يحدو بقضية النفي إلى الدخول في علاقة جدلية مع قضايا أخرى من الحب والاغتراب والهجرة وصراع الحضارات والسياسة وغيرها مثل الثلاثية:

¹ . 74 - p 12 volume/12013- issue/ Writing Palestinian Exile, Habib, Dr. Maha F, Holy Land Studies (Journal)

سأهبك مدينة أخرى، هذه تخدم مملكتي، نفق تضيئه امرأة واحدة لأحمد إبراهيم الفقيه وسمك اللجة لفیصل حوراني ووليمة لأعشاب البحر والزمن الموحش لحيدر حيدر والبحث عن وليد مسعود والسفينة لجبرا إبراهيم جبرا ورجال في الشمس لغسان كنفاني وخمسة أصوات لغائب طعمة فرمان والأشجار والاعتیال المرزوق، المنبت، مدن الملح، شرق المتوسط، الآن هنا، أو شرق المتوسط أخرى، وعالم بلا خرائط باشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا لعبد الرحمن منيف وموسم الهجرة إلى الشمال للكاتب والأديب السوداني الطيب الصالح.

وهناك بعض الكتاب الذين اتخذوا لهم مجتمعا بديلا باختيار وطن آخر واندمج فيه بدون شعور بالمنفى ولم يعبروا في كتاباتهم عن المنفى بل قدموا وجوها مختلفة للاغتراب المكاني بجانب أشياء ومواضيع أخرى كغالب هلسا في رواية الخماسين، ثلاثة وجوه لبغداد وأهداف سريف في روايتي خارطة الحب وفي عين الشمس.

وهكذا نجد أن هناك أقلية من الكتاب عبرت عن شعوبها بصورة عامة إما بالتأكيد على فكرة المنفى الجماعي أو في بعض الأحيان بدون طرح موضوع المنفى بصورة مباشرة من خلال اللجوء إلى بلاغة المقموعين استعانة بأساليب كناية ورمزية بعيدا عن التصريح واحتماء بالتورية والتلميح كادريس علي في دنقلة، انفجار جمجمة، والنوبي وسليم بركات في معسكرات الأبد، وعبور البشروش.

وظهرت هناك بعض الكتابات التي اعتنت برصد تجليات ظاهرة بعينها مثل ظاهرة الهجرة من مصر إلى البلاد العربية الأخرى في البلدة الأخرى لإبراهيم عبد المجيد ووجع البعاد، بلد المحبوب ليوסף القعيد. ولكن بالعكس من هذه الأعمال التي اهتم بعض الإنتاج الفني لكتابتها بمعالجة انعكاسات ظاهرة من الظواهر برز هناك بعض الكتاب متنوعوا الإنتاج والذين تشكل فكرة المنفى حيزا ضئيلا من أعمالهم أو يجد الواحد مجرد

إشارات ضمنية مبعثرة في كتاباتهم مثل علاء الديب في أطفال بلا دموع، قمر على المستنقع، عيون البنفسج ومحمد البساطي في المقهى الزجاجي وجميل عطية إبراهيم في والبحر ليس بملآن وصنع الله إبراهيم في غمة أغسطس وجمال الغيطاني في رسالة الصبابة والوجد، كتاب التجليات وفتحي غانم في الساخن والبارد¹.

تعطي هذه النظرة في أعمال الأدباء التي أتيت علي ذكرها فهما كافيا بأن طبيعة المنفى هي معقدة وتتمظهر فكرتها في الأدب العربي بطرق شتى من المنفى الداخلي والخارجي والمزدوج والوجودي ومنفى اللغة وأذكر فيما يلي بعض الأعمال التي تتجسد فيها هذه الأنواع المختلفة من المنفى كي نفهم هذه الظاهرة من منظور أعمق.

منفى داخلي:

تواجه الشخصية الرئيسية فيه ضغوطا سياسية تؤدي بها إلى الإرتحال بين المدن داخل البلد أو العيش عند التخوم ومنها أعمال:

(الأشجار واغتيال مرزوق - 1972) لعبد الرحمن منيف: يخرج منصور عبد السلام الذي يكون في هذه الرواية الراوي من بلده لكونه مطرودا من عمله بالجامعة لأسباب متعلقة بالسياسة.

(الزمن الموحش - 1973) لحيدر حيدر: يسكن الراوي وأصدقاء قسرا مدينة واقعة على التخوم بين دمشق وبيروت بعد حرب 1948م فضلا عما يجيش في خواطرهم من أحاسيس شتى تمزج بين مشاعر المنفى واللجوء والغربة والاعتراب في تداخل مرهف ومربك في وقت واحد.

¹ .الثعنت، محمد، سرديات المنفى، أزمنة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص 11-12.

(سمك اللجة - 1991) لفیصل حورانی: سمیر سعید الکندرجی وهو الراوی فیہ مدرس دمشقی یعیش فی سوریا إبان الحكم الشیشکلی (1953-1954) ویتعرض لإقصاءه إلا إحدی القرى البعیة المظلة علی فلسطین إثر آرائه المناهضة للسلطة الحکومیة.

(معسكرات الأبد - 1993) لسلم بركات: هذه الروایة تصور عائلة كردیة تواجه استبداد الاستعمار الفرنسی داخل حدود وطنیة وتعیش مع غیرها من عائلات مبعثرة كجزر منفصلة فی معسكرات أبدیة مولدة لكل ما فیہ غربة و اغتراب.

(طیور الحذر - 1996) لإبراهیم نصر الله: تتحدث هذه الروایة عن عائلة الصبی الصغیر الغریب الذی یعیش فی مخیمات وكیف تكون غرائبیة الحیاة وقسوتها المفرطة فی وطن منفی للأمد، وطن كله مخیمات وعبارة عن حیاة الاستثناء.

(عراقیون أجناب - 1999) لفیصل عبد الحسن: هذا العمل الروائی يتحدث عن منفی داخل الوطن ثم یتطرق إلا رحلة النزوح الجماعی (الشتات) لقریة برمتها وهي قریة الجوابر الشیعیة خارج العراقی ومن هنا أطلق علیهم الأجناب إذ إنهم تم إبعادهم عن أرضهم وتاریخهم وتراثهم. نجد تجلیات هذه الروایة فی روایة إدیس علی (النوبی - 2002) حیث یتعرض راوی القصة للهجرة القسریة من قریة كبش وإیجبر علی النزوح بعیدا عن مجاری فیضان نهر النيل. تتثیر هذه الروایة من خلال شخصیاتها الرئیسیة مشاعر حول الوطن والهویة واللغة والدین وما إلا ذلك.

منفی خارجي:

تواجه فیہ الشخصیة ضغوطا سیاسیة تجبرها إلا مغادرة البلد والهیام فی ظلمات المناف أو اللجوء إلا بلد یؤوی اللاجئین وإی یردهم ومنه:

(رجال في الشمس - 1963) لغسان كنفاني: يتم في هذه الرواية نفي الشخصيات الثلاثة الرئيسية - أبو فيس، أسعد، مروان - عن وطنهم الفلسطيني ومن هنا يسافرون إلى العراق ويتخذون منه مسكناً لهم ولكنهم يريدون الهروب من خلال الطرق الحدودية إلى أراضي الكويت حرصاً لما يدر النفط هناك من نقود لامعة.

(عودة الطائر إلى البحر - 1969) لحليم بركات: تعكس هذه الرواية عدم استطاعة الراوي (رمزي صفدي) الرجوع إلى وطنه الفلسطيني بعد حدوث وقائع حرب السابع والستين وهو في لبنان فيعيش هناك حياة المنفي الأبدي تماماً.

(شرق المتوسط - 1975) لعبد الرحمن منيف: الراوي فيه لا يجد طريقاً سوى اللجوء إلى إحدى بلاد أوروبا بعد أن ذاق أنواعاً من التعذيب داخل سجون بلده (منفاه).

(البحث عن وليد مسعود - 1978) لجبرا إبراهيم جبرا: تعكس تفاصيل حياة المنفي الفلسطيني "وليد مسعود" وعذاباته في المنفى (العراق)، ثم قراره بالعودة الفجائية إلى منفى الوطن بعد معرفته بإسهاد ابنه مروان دفاعاً عن الوطن المنفى.

(وليمة لأعشاب البحر - 1983) لحيدر حيدر: تعكس تفاصيل حياة مهدي جواد المدرس العراقي بالجزائر وعلاقاته بأصدقائه المنفيين والمقيمين في مدينة بونة مجمع المنفيين كما ترسم مشاعر المنفيين المضطربة وسلوكياتهم الغربية.

(المنبت - 1986) لعبد الرحمن منيف: حيث يتم عزل السلطان خزعل في "بادن بادن" بألمانيا وتتقطع عنه أخبار "موران - الوطن" فيكتب عليه العيش في المنفى حتى لحظة وفاته وتشتت حاشيته ووفاة خيوله بمدن المنافي الباردة.

(عبور البشروش - 1994) لسليم بركات: يسعى الراوي المنفي والمهندس الفلكي إلى تصاميم للمتاهة وتوثيق لما يراه في المدينة التي لجأ إليها فأوته من أهوال وغرائب في

مناهات المنفى ومنحنياته جنبا بجنب توليد الرواية صورة سردية تمثيلية كبرى للأكراد المنفيين عن تراث ولغة ووطن وهوية مفقودة.

(الحب في المنفى - 1995) لبهاء طاهر: الراوي الصحفي منفي اختيارا (ومطرود في الوقت نفسه) من جريدته القاهرية إلى مدينة أوروبية، وإلى جوار آخرين منفيين جبرا ومغتربين.

منفى مزدوج:

تواجه فيه الشخصية الروائية ضغوطا سياسية واجتماعية مرعبة تدفع بها إلى درجة من الاضطراب الذي يصبح معه العالم منفيا، سواء داخل الوطن أو خارجه. ولعل أفضل ما يمثل وضعية "المنفى المزدوج" رواية إميل حبيبي "الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" (1974)، حيث يعاني سعيد المتشائل مرارة المنفى داخل وطن منفي هو الآخر، فلا إلى هؤلاء (إسرائيل: باعتباره واحدا من عرب إسرائيل) ينتمي، ولا إلى أولئك (الفلسطينيين: المنفيين أبدا) يعود إنه وضع بيني مزدوج تنقسم فيه الذات على نفسها، وتنسحب ورؤيتها المزدوجة على كل شيء من اللغة والهوية والثقافة والوطن وغيره.

منفى وجودي:

تواجه فيه الشخصية الروائية أزمة وجودية بحق، فالوطن وما سواه منفي كبير يلح على الذاكرة والوعي والمخيلة. ولعل أبرز الأمثلة على هذا الوجه من وجوه المنفى رواية واسيني الأعرج (ذاكرة الماء: محنة الجنون العاري - 1997)، وهي رواية منفي وجودي بامتياز، يكون فيها الراوي منفيا داخل وطنه (الجزائر في حقبة الثمانينيات) ومنفيا خارجه (في هجرته المتكررة إلى فرنسا) وتمثل الرواية تمثيلا فنيا وثقافيا لافتا أثر المنفى في

ذاكرة الراوي وفي سرديته في مجتمع الجزائر الذي كان يملؤه الرعب آنذاك وينتشر فيه القتل والإبادة ونفي الآخر جسديا ومعنويا. والرواية إجمالاً تمثيل فني ليوم واحد في حياة أحد المنفيين، يوم يكاد يبلغ القيامة في وطأته وطوله.

منفى اللغة:

تواجه فيه الشخصية الروائية وضعاً أشبه بـ"المنفى المزدوج". إنه ازدواج هوية أولئك الكتاب العرب الذين يحملون وعياً ولساناً أجنبياً، وتطرح رواياتهم مثل هذا الازدواج بين وعي الثقافة ووعي اللغة. ويتمثل هذا الوجه من وجوه المنفى في أغلب إنتاج كتاب المغرب العربي وكاتبته ممن يمارسون أو يمارسن الكتابة بالفرنسية. ولا ينفصل هذا الإنتاج الروائي الضخم لكتاب المغرب العربي وكاتبته عن سنوات من المد (أو الغزو) الاستعماري الفرنسي لهذه المنطقة من العالم العربي، رغم تمرد الكثير من مبدعي هذه المنطقة الآن وظهور كتابات تناهض مثل هذه الهيمنة (الثقافية إلى الآن على الأقل). وهي كتابات تمتاح من وعي الآداب ما بعد الكولونيالية، سواء في أفريقيا أو الهند الغربية أو في جنوب آسيا، ممن يشاركونهم التوجه المناهض ذاته¹.

المشهد المتغير لأدبيات المنفى في الزمن المعاصر:

بعد السبعينيات، لم تعد الرومانسية التي كانت تشكل التيار الرئيسي للأدب العربي تجد أي رنين لدى الكتاب الشباب كما كانت الحال في القرون التي مضت. حتى عام 1970، استعان الأدباء العرب إلى حد كبير بنفس الهياكل التي خدمتهم منذ الألفية. كانت قراءات شعراء العالم، مثل تي إس إليوت، مهمة في مساعدة الأدب العربي على إيجاد اتجاه جديد. لكن المنفى والسجن - بالعمل على الهامش بدلاً من المركز - حفزا أيضاً رواد حركة الشعر الحر. أما "الغربة" التي عاشها الأدباء العراقيون أمثال بدر شاكر

¹ . نفس المصدر السابق، ص 35-37.

السياب وعبد الوهاب البياتي، والشاعر السوري أدونيس، فقد خطوا خطوات حاسمة في إعادة اختراع الأدب العربي.

كل هؤلاء الكتاب الرائدون كانوا خبراء في أيديولوجية وأدبيات المنفى، كون معظمهم قد تعرضوا للإيذاء السياسي والاجتماعي والمعنوي. ومع ذلك، فإن هذه المنافي، سواء كانت شخصية أو جماعية، أصبحت مهمة لا لأنها كانت جزءاً من حياة أدبهم اليومية، بل لأن شاعرية المنفى وجدت صداها على نطاق واسع.

وللأفضل والأسوأ، فإن هذه هي تجربة النفي الشخصية التي تحدثت على نطاق واسع لقراء العالم. وأشار مازن معروف الأديب الشاب الفلسطيني إلى أن اهتماماً بالمنفى قد أدى إلى حظى أعمالاً بالقبول العالمي. "الشعور بالاغتراب أو الشعور بأنك أجنبي أو غريب أو كونك لاجئاً - يمكن أن يحصل بطرق عديدة فبعض الأفراد لديهم الأرض، لديهم كل شيء، لكنهم لا يزال يشعرون كأنهم الغرباء"¹.

ورغم أنك يكتب من ذاكرتك الخاصة وخبرتك، ربما هذا يمكن أن يكون نقطة انطلاق لقراءة المنفى والاغتراب في المجتمع ككل.

في السنوات الخمسين الماضية، كان العديد من الكتاب العرب على اتصال مكثف مع هذه الحالة الغرائبية المتمثلة في الفضاءات البينية من اللانتمائية. ولكن بعد كل هذا، لم يكن هناك فقط الطرد الفلسطيني الجماعي الذي بدأ في عام 1948، ولكن كانت هناك أيضاً عمليات التشريد الناجمة عن حرب الجزائر من أجل الاستقلال، والحرب الأهلية في لبنان، والدكتاتوريات التي سجت وطردت الكتاب، والاحتلال والحرب الأهلية المستمرة في العراق، و استمرارية الهلاك وسفك الدم في سوريا.

¹ . A tiny place of freedom: an interview with Mazen Maarouf at (mazenmaarouf.wordpress.com)

وإذا كان المؤلفون في المنفى لا يمتلكون شيئاً آخر، فإنهم يمتلكون قدرتهم على إعادة بناء بلدهم كمحبوب، كدليل، كتصحيح للطريقة التي وصف بها الآخرون وطنهم. وفي الواقع فإن هذا التجديد الخيالي للمكان الذي لا يمكن زيارته جسدياً يقف بمثابة استعارة لأي عمل كتابي.

ومما لا يثير الدهشة أن العديد من أبرز الكتب العربية المكتوبة في السنوات الأخيرة تأخذ المنفى كموضوع رئيسي. فالكاتب اللبناني جبور الدويهي في روايته (مطر حزين)، يبحث بشكل جميل التفكك الذي تصاحبه حياة المنفى. شخصية دويهي الرئيسية تحاول باستمرار لإعادة تشغيل نفسها، لتبدأ الحياة مع سرد جديد. ونفيها هو دائم، وتحاول لبدأها مرة أخرى مع كل شخص تلتقيه. يعود إلى لبنان من أجل العثور على نسخة حقيقية من نفسه، وقصة حياته الحقيقية، ولكن مثل هذا الشيء لا يبدو ممكناً.

الشاعر الأردني أمجد ناصر في (حيث لا تسقط الأمطار)، يستكشف تقسيم الذات إلى ذوات متعددة والذي يحدث عندما يترك المؤلف عائلته ومحبوبته وراءه ويذهب إلى المنفى. وعندما يعود المؤلف، لا يمكنه إعادة ترتيب هذه التعددية الذاتية مرة أخرى.

وتتبع الكاتبة المصرية رضوى عاشور في روايتها (الطنطورية) امرأة فلسطينية منذ عام 1948 من خلال المنافي المتعددة من لبنان ومصر ودبي. والرواية تتحدث في معظم مشاهد الحسرة ورضوى بارعة جداً في وصف هذه المشاهد، حتى عندما تكتب ضدها عن علاقة الأم المتوترة بأطفالها المنفيين. ومع ذلك فإن بطل الرواية في كتاب عاشور الآخر (رواية فرج) لا ينفي من مصر، ولكن الكتاب مليء بالمنافي الداخلية من السجن والاعتقال والانتحار.

ينبع معظم هذه المنافي من النزوح الجماعي أو النفي في فلسطين ولبنان والعراق. ومع ذلك فإنها جميعاً شخصية للغاية، تسعى إلى عدم إعادة إنشاء الهوية الجماعية، بل

لدراسة آثار المنفى على الذات. ومن هنا تعد هذه الأعمال جزءا من محادثة أدبية عربية وعالمية متداخلة.

أصبح هذا الموضوع موضوعا فرعيا في العلوم الإنسانية، وفي السنوات العشرين المقبلة سيكون أحد المواضيع الرئيسية في الأوساط الأكاديمية. لأن التغييرات التي تتجم عن هذه المنافى هي هائلة مثل الحرب العالمية. نحن نتحدث عن مليارات من الناس الذين تم قتلهم أو نفيهم. ولا يمكن للكاتب أن يقف جانبا ويدعي أنه ليس لديه موضوع ما ليفكر فيه.

وأنهي الكلام في أدبيات المنفى في السياق العربي والفلسطيني بما أشار إليه إدوارد سعيد في كتابه "تأملات في المنفى":

"إن العصر الحديث هو العصر الذي يتسكع فيه أعداد ضخمة من البشر كلاجئين ومشردين"¹. والأدبيات المتعلقة بالمنفى، لو تحدثت فقط مع اللاجئين والمشردين، ستكون ذات فائدة محدودة نسبيا. ولكن هذه الأدبيات لها تأثير أوسع بكثير. وكما يلاحظ سعيد، "أن المنفى من الجغرافيا والمجتمع البشري لم يزل سمة عامة بين المجتمعات ما بعد الصناعية في جميع أنحاء العالم، وأدب المنفى يتحدث عن شعور مشترك من الاغتراب"². ومن هنا نرى أن المنفى هو أحد الأماكن التي تمكن الأدب العربي فيها من التواصل بشكل أقوى عبر الحدود اللغوية.

¹ . Edward W Said, Reflection s on Exile and other Literary and Cultural Essays, Granta, London, 2001, pp 177

² . Ibid- 178

الباب الثاني

حياة محمود درويش ومريد البرغوثي ومساهمتهما في
الأدب العربي

هذا الباب يحتوي على فصلين وهما كما يلي:

- الفصل الأول : محمود درويش نشأته ودراسته وإسهاماته
الأدبية
- الفصل الثاني: مريد البرغوثي نشأته ودراسته وإسهاماته
الأدبية

الفصل الأول

محمود درويش نشأته ودراسته
وإسهاماته الأدبية:

محمود درويش نشأته ودراسته وإسهاماته الأدبية

ولد محمود درويش في 13 مارس عام 1941 في قرية البروة من قضاء مدينة عكا في الجليل الغربي لأسرة ريفية بسيطة متواضعة، أب مزارع وأم قروية وسبعة إخوة من ذكور وإناث¹.

طرد من البروة مع أسرته في السادسة من عمره تحت دوي القنابل عام 1947 ووجد نفسه أخيرا مع عشرات اللاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان بعد أن تعرض الشعب الفلسطيني للاقتلاع وتدمير مدنه وقراه. يقول محمود درويش بهذا الصدد.

"أول قرية لبنانية أتذكرها حينذاك هي رميش ثم سكنا في جزين إلي أن هبط الثلج في الشتاء. وفيها شاهدت للمرة الأولى في حياتي شلالا عظيما ثم انتقلنا إلي الناعمة قرب الدامور، وأتذكر الدامور في تلمك الفترة جيدا، البحر وحقول الموز. كنت في السادسة من عمري لكن ذاكرتي كانت قوية وعياني مازالتا تسترجعان تلك المشاهد. كنا ننتظر انتهاء الحرب لنعود إلي قرانا لكن جدي وأبي عرفا أن المسألة انتهت فعدنا متسللين مع دليل فلسطيني يعرف الطرق السرية إلي شمال الجليل. وقد بقينا لدي أصدقاء إلي أن اكتشفنا أن قريتنا البروة لم تعد موجودة - وجدت عائلة درويش قريتها مهدومة وقد أقيمت علي أراضيها موشاف (قرية زراعية إسرائيلية) "أحيهود" وكيبوتس يسعور، فالعودة إلي مكان الولادة لن تتحقق. عشنا لاجئين في قرية أخرى اسمها دير الأسد في الشمال. كنا نسمي لاجئين ووجدنا صعوبة بالغة في الحصول علي بطاقات إقامة لأننا دخلنا بطريقة "غير شرعية" فعندما أجري تسجيل السكان كنا غائبين. وكانت صفتنا في القانون الإسرائيلي

¹ .د. سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ص224

"الحاضرون - الغائبون" أي أننا حاضرون جسدياً بلاأوراق. صودرت أراضينا وعشنا لاجئين"¹.

تلقي دراسته البدائية من مدرسة ثانوية في كفر ياسف التي تقع علي بعد كلومتريين شمال الجديدة ثم انتقل إلي حيفا حيث امتلكت عائلته بيتاً. يقول محمود درويش:

"وفي حيفا عشت سنين و أنهيت فيها دراستي الثانوية ثم عملت محرراً في جريدة الاتحاد وكنت ممنوعاً من مغادرة حيفا مدة عشر سنوات. كانت إقامتي في حيفا إقامة جبرية. ثم استرجعنا هويتنا، هوية حمراء في الداية ثم زرقاء لاحقاً وكانت أشبه ببطاقة إقامة. كان ممنوعاً عليّ طوال السنوات العشر أن أغادر مدينة حيفا. ومن العام 1967 لغاية العام 1970 كنت ممنوعاً من مغادرة منزلي وكان من حق الشرطة أن تأتي ليلاً لتتحقق من وجودي وكنت أعتقل في كل سنة وأدخل السجن من دون محاكمة ثم اضطررت إلي الخروج"².

نشر في عام 1960 حينما كان في التاسعة من عمره أول ديوانه باسم "عصافير بلا اجنحة". كان بالبداية ينشر قصائده ب"الجديد" الدورية الأدبية للحزب الشيوعي الإسرائيلي ثم عمل رئيس تحريرها. إنضم إلي الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكا) ناشطاً سياسياً عام 1961 وعبر عن مشاعره السياسية من خلال قصائده وعمل في صحافة الحزب مثل الإتحاد. وضع محمود درويش في ققص الإتهام بالقيام بنشاطات معادية لدولة إسرائيل فطورد واعتقل خمس مرات 1961 و 1965 و 1966 و 1967 و 1969. غادر درويش إسرائيل في عام 1970 للدراسة في الإتحاد السوفياتي حيث درس في جامعة لومونوسكوف موسكو الحكومية ثم ترك الجامعة بعد عام واحد وانتقل إلى مصر وعمل

¹ . مؤسسة محمود درويش، www.darwishfoundation.org

² . نفس المصدر

مع جريدة الأهرام اليومية في هذه الأثناء. توجه بعدها إلى بيروت حيث قام بتحرير مجلة "شؤون فلسطينية" وعمل في مركز البحوث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية وقدم استقالته من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير احتجاجاً على اتفاق أوسلو وكان أحد أعضاءها التسعة الذين وقعوا على بيان يرفضون فيه اتفاقية أوسلو الثانية في 4 تشرين الأول/أكتوبر 1995¹.

عاد في عام 1995 للحضور في جنازة زميله أميل حبيبي واستلم إذن إقامة للبقاء في حيفا لمدة أربع سنوات و في نفس السنة سمح لدرويش بالإقامة في رام الله و لكنه قال إنه لا يزال يشعر و كأنه يعيش في المنفى هناك و لم يعتبر الضيفة الغربية وطنه الذاتي. كان درويش تزوج مرتين بعد طلاقه من زوجته الأولى رانا قباني في منتصف الثمانينات ثم تزوج مترجمة مصرية حيات حسنى. لم يكن لمحمود درويش أي أولاد وفي الأيام الحرجة الصعبة للحرب اللبنانية كتب قصائد سياسية مثل قصيدة بيروت (1982) و مديح الظل العالي (1983). نشر درويش أكثر من ثلاثين مجلدا للشعر وقام بنشر ثمانية كتب ترجمت إلى 35 لغة وبالإضافة إلى ذلك شغل منصب رئيس رابطة كتاب و الصحفيين وحرر مجلة كرم التي أعيد نشرها من رام الله في كانون الثاني /يناير 1997².

كان لدرويش علاقات صداقة مع العديد من الشعراء ومنهم محمد الفيظوري من السودان و نزار قباني من سوريا و نابع الحجية و رعد بندر من العراق و غيرهم من أفاض الأدب في الشرق الأوسط كما كان له نشاط أدبي ملموس في الساحة الأردنية فقد كان من أعضاء الشرف في نادي أسرة القلم الثقافي مع عدد من المثقفين أمثال مقبل موسى وسميع

¹ . شخصيات فلسطينية، www.passia.org

² . د. سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ص224

الشريف وغيرهم. وممن تأثر بهم الشاعران العراقيان عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب كما اعترف بتأثره بالشاعر الفرنسي اراتر رامبو والشاعر الأمريكي ألن غينسبرغ¹.

أسلوب كتابته:

كانت كتابات درويش المبكرة هي على النمط الكلاسيكي. كتب قصائد أحادية الشكل الملتزمة بمقاييس الشعر العربي التقليدي و لكنه في السبعينات بدأ يخرج عن هذه الأساليب و اعتمد على تقنية الوزن الحر الذي لا يلتزم بدقة بالمعايير الشعرية الكلاسيكية و قد هيا أسلوبه الشبه الرومانطيسي لأعماله المبكرة طريقا للغة أكثر مرونة واستبدل الشعارات و اللغة الإعلانية التي ميزت شعره المبكر ببيانات غير مباشرة و غير سياسية ظاهريا على الرغم من عدم ابتعاد السياسة عن شعره و عن البيئة التي كان يعيش فيها ومحاطا بها.

وفاته:

توفي في الولايات المتحدة الأمريكية يوم السبت 9 أغسطس 2008 بعد إجراء عملية القلب المفتوح في المركز الطبي في هيوستن، التي دخل بعدها في غيبوبة أدت إلى وفاته.

نعى رئيس السلطة الفلسطينية رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير محمود عباس شاعر فلسطين الكبير محمود درويش، وأعلن الحداد 3 أيام في كافة الأراضي الفلسطينية حزنا على وفاته واصفا درويش عاشق فلسطين ورائد المشروع الثقافي الحديث والقائد الوطني اللامع والمعطاء¹.

¹ . مؤسسة محمود درويش، www.darwishfoundation.org

وري جثمانه الثرى في 13 أغسطس في مدينة رام لله حيث خصصت له هناك قطعة أرض في قصر رام لله الثقافي. وقد شارك في جنازته الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني وشخصيات أخرى في مقدمتهم الرئيس محمود عباس. وتم نقل جثمان الشاعر محمود درويش إلى رام لله بعد وصوله إلى العاصمة الأردنية عمّان حيث كان هناك العديد من الشخصيات من العالم العربي لتوديعه.

جوائز وتكريم

- إن الأعمال الأدبية القيمة التي أنتجها درويش أكسبته عدة جوائز علمية وأدبية في المنصات العالمية والمحلية، وهي كما يلي:
- جائزة لوتس اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا في الهند عام 1969
- جائزة البحر المتوسط، المركز الثقافي المتوسط باليرمو، ايطاليا عام 1980
- درع الثورة الفلسطينية من قبل منظمة التحرير الفلسطينية عام 1981
- جائزة ابي علي بن سينا الدولية في الإتحاد السوفيتي عام 1981
- لوحة أوروبا للشعر في ايطاليا عام 1982
- جائزة لينين من قبل الاتحاد السوفيتي في الإتحاد السوفيتي عام 1983
- جائزة شعراء من اجل السلام، من قبل مجلس بلدي فيلا ديمادوف، في ايطاليا عام 1987
- شهادة تقدير من جامعة التشيلي، مركز الدراسات العربية بجامعة تشيلي، مدينة سنثياغوفي تشيلي عام 1990

وسام الاستحقاق الوطني الفرنسي من قبل وزارة الثقافة الفرنسية برتبة فارس في فرنسا عام
1997

جائزة الآداب من وزارة الثقافة الفرنسية في فرنسا عام 1997

الصنف الأول من وسام الاستحقاق الثقافي تونس: يقدم من قبل الحكومة التونسية، في
تونس عام 1998

وسام الكفاءة الفكرية في المغرب: يقدم من قبل الحكومة المغربية، في المغرب عام
2000

وسام القديس بطرس بولس ميدالية ذهبية من قبل بطريك انطاكية وسائر الشرق في
دمشق عام 2001

جائزة تقدير من جامعة البلمند في لبنان عام 2001

جائزة الحرية الثقافية التي تمنحها مؤسسة لانان فيلادلفيا، الولايات المتحدة الأمريكية عام
2001

جائزة السلطان بن علي العويس للانجاز الثقافي والعلمي مناصفة مع الشاعر السوري
أدونيس، في دولة الامارات العربية المتحدة عام 2003

جائزة الأمير كلاوس الهولندية، تقدم من قبل القصر الملكي في امستردام -هولندا عام
2004

جائزة ادبية دولية لودوميا بونامي من محافظة لاكلولا في ايطاليا عام 2006

جائزة الوردة الفضية، من اتحاد الكتاب البلغار، في جمهورية بلغاريا عام 2006

جائزة القاهرة للإبداع الشعري العربي، قدمت منقبل الملتقى الدولي للشعر العربي، في
مصر عام 2007

جائزة "ملك الشعر" جائزة جولدن ريث العالمية في مهرجان الشعر العالمي في مقدونيا عام
2007

جائزة الأركان العالمية للشعر، تقدم من قبل بيت الشعر في المغرب عام 2008

جائزة الشاهد البوسنية، قدمت من قبل مهرجان ايام سرايفو في البوسنة عام 2008

جائزة ناظم حكمت التركي في تركيا

وسام القدس الذي صدر بمرسوم من الرئيس محمود عباس عام 2008 ، وترك للشاعر
تحديد تاريخ الاحتفال لكن المرض أرجأ الاحتفال

جائزة البحر الابيض المتوسط للسلام، قدمت من قبل مؤسسة البحر الابيض المتوسط
للسلام، في ايطاليا عام 2009

درع مجسم مدينة القدس في باريس

درع القديس الشهيد ايليا الحمصي مطرانية حمص للروم الارثادوكس

درع تقدير من وزارة الثقافة المصرية

أعلنت وزارة الاتصالات الفلسطينية في 27 يوليو 2008 عن إصدارها طابع بريد يحمل
صورة محمود درويش.

أنتج التلفزيون الفرنسي فيلماً وثائقياً عنه من إخراج سيمون بيتون عام 1997¹.

¹ . المصدر السابق

دواوين الشعر

عصافير بلا أجنحة (شعر)، عام 1960

أولّق لزيتون (شعر)، عام 1964

عاشق من فلسطين (شعر)، عام 1966

آخر لّليل (شعر)، عام 1967

يوميات جرح فلسطيني (شعر)، عام 1969

لّكتابة علّ ضوء لّالبندقية (شعر)، عام 1970

لّعصافير تموت في لّالجليل (شعر)، عام 196

حبيبتي تنهض من نومها (شعر)، عام 1970

أحبك أو لا أحبك (شعر)، عام 1972

محاولة رقم 7 (شعر)، عام 1973

تلك صورتها وههّ لّنتحار لّلعاشق (شعر)، عام 1975

أعلّس (شعر)، عام 1977

مديح لّلظل لّلعالي (قصيدة تسجيلية)، عام 1983

حصار لّملاّح لّالبحر (شعر)، عام 1984

هي أغنية ... هي أغنية (شعر)، عام 1986

ورد لّقل (شعر)، عام 1986

مأساة النرجس ملهاة الفضة (شعر)، عام 1987

أرى ما أريد (شعر)، عام 1990

أحد عشر كوكباً (شعر) عام 1992

لماذا تركت الحصان وحيدا (شعر) عام 1995

سرير الغريبة (شعر)، عام 1999

جدارية (شعر)، عام 2000

حالة حصار (شعر)، عام 2002

لا تعتذر عما فعلت (شعر)، عام 2004

كزهر اللوز أو أبعد (شعر)، عام 2005

لا اريد لهذي القصيدة ان تنتهي (شعر)، عام 2009

نشر

شيء عن الوطن (خواطر ومقالات)، عام 1971

يوميات الحزن العادي (خواطر ومقالات)، عام 1973

وداعاً أيتها الحرب...وداعاً أيها السلام (مقالات) عام 1974

ذاكرة للنسيان (نص)، عام 1987

في وصف حالتنا (نص)، عام 1987

في انتظار البرابرة، عام 1987

الرسائل محمود درويش وسميح القاسم، عام 1989

عابرون في كلام عابر (قصيدة ومقالات)، عام 1991

في حضرة الغياب (نص)، عام 2006

حيرة العائد (مقالات)، عام 2007

أثر الفراشة (يوميات)، عام 2008¹

إسهامات محمود درويش في الأدب العربي:

محمود درويش هو شاعر العرب كما هو شاعر الإنسانية في أن مثله مثل لوركاة اراغون نيزوردا و سواهم من شعراء العالم الذين غنوا عذابات شعوبهم وعذابات الإنسانية في آن. فجر في اللغة العربية طاقاتها إلي أقصى مدي علي غرار ما فعله المتنبي في القديم. كان صوت الشعب المرشد الذي لا صوت له. كتاباته تعكس القيم الإنسانية كما تعكس نضال الفلسطينيين ضد النسيان و الإحباط و التوق إلي الحرية و حلم الهوية و الكفاح من أجل فكرة أن وطنه يتعلق بالفلسطينيين الذين هم أصحابه الشرعيون و هكذا تعكس حزنه و شوقه الذي يشعره لوطنه وآلامه علي احتلاله و آلامه اللامتناهية لعودة بلاده إلي الفلسطينيين واحباطه علي انخلاع الفلسطينيين و تشريدهم و إستصالحهم و حزنه علي كونه تحت الحصار و من خضوعه للقيود و الحبس و أمله في الحرية والاستقلال في أرض يتمتع فيها هو و شعبه بحياة كريمة و شريفة.

كرس محمود درويش أعماله الشعرية و النثرية لبلاده وأبناءها. و عي درويش بقضية الوطن ومشاكل أبناءه بامعان ومارس حلولا لها إذ كان يؤمن بأن مأساته الشخصية هي مربوطة بمأساة الشعب كله. وهذه الهوية تشكل جزء لا يتجزأ من السرد الوطني ويلعب

¹ .د. سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ص224

دورا رئيسيا في المقاومة المستمرة في جوانبها التي لا تعد ولا تحصى. إنه يمثل عاملا موحدا ذلك الذي يتحدث عن تشابه في الخبرة، والذاكرة المشتركة التي تدفئ القلب. بدأ درويش مسيرته الأدبية في الستينات ولا يمكن الحديث عن تطور الشعر العربي الفلسطيني دون الحديث عن درويش بالذات. وقد جني درويش فائدة كبرى من ثورة الستينات و السبعينات في عالم الصورة الشعرية.

والآن يجدر الإشارة إلي أفكار رئيسية عما يتوفر لدينا من أعمال محمود درويش النثرية ومجموعاته الشعرية أمثال "شيء عن الوطن"، "عابرون في كلام عابر"، "عصافير بلا أجنحة"، "عاشق من فلسطين"، "أوراق الزيتون"، "قصيدة بيروت"، "قصيدة مديح الظل العالي"، "قصيدة جدارية"، "حالة حصار"، "أحد عشر كوكبا"، "سرير الغريبة" وما إلي ذلك. تعبر هذه الأعمال قصة مأساوية عاشها درويش في داخل البلاد وخارجها.

شيء عن الوطن : يفيض الشاعر محمود درويش في هذا الكتاب بعواطف حسية و فكرية و نفسية تدعو الطبيعة إلى التصاق بأشكال وطنية مألوفة أم غير مألوفة و تدعو أيضا الإنسان إلى التفاعل الثنائي. يسعى درويش فيه إلي الربط بين الطبيعة و الإنسان الفلسطيني ربطا روحيا يعبر عن همومه و يعي بأن الطبيعة ناطقة عن أفكار في ذهنه وهي متميزة بالنسبة للشاعر فشجرة الزيتون و البيدر و البحر و الحجر و القمر و الكرم و غير ذلك من مظاهر الطبيعة و البيئة الفلسطينية جبلت في دم الإنسان ذاته. فالأرض الفلسطينية تلعب دورا كبيرا في التحام الشعر الفلسطيني بها و هذا ما عناه درويش بمناظر طبيعية . درويش يقاوم الألم و الاضطهاد و محاولات طمس الكيان و الكرامة القومية والإنسانية¹.

¹ . محمود درويش، شيء عن الوطن، ص 23.

لم ينفصل عنه شيء عن الوطن حتى لأية ثانية في سجنه و ذلك لأنه كان متألماً
تألماً شديداً لأجل وطنه، و يرفع راية النضال لأجل وطنه، و ينظم الشعر لأجل وطنه و
لا يزال راسفاً في قيود حب وطنه حتى ينطق لسانه تلقائياً " و حتى لو تحول هذا الوطن
الصغير كله إلى سجن فسنبقي على حبه لأنه وطننا. وأن من صار سجنه وطناً أو وطنه
سجناً لخير ممن يجعل الاحتلال وطناً له"¹.

عابرون في كلام عابر: هذه القصيدة الطالعة في مطلع الانتفاضة المستمرة من
1987-1993 مثال لاقت للنظر و عبارة عن أوضاع سادت عليها روح الانتفاضة
سيادة تامة. يمثلها الشاعر محمود درويش كمرآة صادقة تعكس فيها جميع جوانب
المجتمع الإسرائيلي والفلسطيني على حد سواء . يعتقد أمي ايلاذ بوسكيلا، أن درويش لا
مثيل له و لا نظير له في تصوير المجتمع الإسرائيلي و الفلسطيني وذلك لأن جسده كان
مركباً و مزيجاً من تراب بلدين . يرى درويش أن قصيدته لا تعكس على صوت فردي و
شخصي فقط بل لها انعكاس على صوت جماعي، و تمثل صورة الناشئ الآخرين و الذين
قضوا معظم حياتهم مع المجتمعات السياسية و الثقافية المتورطة و المضلوعة في
الصراع مع بعضها البعض.

يقول كاتب الكتاب "الأدب الفلسطيني الحديث و ثقافته" عامي ايلاذ بوسكيلا بأنني
لا أريد الخوض في معركة بحثية غير مجدية عما يريد الشاعر بل أريد تفقد الميزات التي
يتسم بها الإسرائيليون و اليهود كما تقدمت هذه القصيدة. تتجلى وجهة نظر الشاعر عن
عنوان القصيدة " عابرون في كلام عابر ". يؤكد العنوان على أن المجتمع الإسرائيلي لا
بقاء له و لا قرار له و لا دوام له، و مثل هذا الكيان يشهد سقوطاً سريعاً مع مرور
الزمن لأن دعائمه لا تقوم إلا على أساس الطاقة والتكنولوجيا اللتين تعتبران ظليلين زائلين.

¹ . محمد دكروب: نقل هذا القول عن درويش في مقدمة ديوانه، ص 4.

وفي غضون ذلك يشكل العرب جزءاً من منطقة طبيعة الأرض الفلسطينية تؤكد القصيدة على أن المجتمع الإسرائيلي في مرحلة انتقالية دائمة في كل زمان و مكان¹.

يعي محمود درويش بخطورة أبعاد الفكرة الجماعية الفلسطينية في قصيدة تتكرر فيها ذكرى إقامة مؤقتة للإسرائيليين على الأرض الفلسطينية و بالعكس، يلتزم الفلسطينيون ويلتصقون بأراضيهم. وكما يرى درويش أن هذه الأرض أرض موهوبة لصالح أبناء فلسطين لذا ينتهي إلى هذه الحقيقة أن الشعب الإسرائيلي سيكون أبداً ملتزماً بهذه الأرض المباركة أو أبناءها، وسيكون غير متمسك بحياتهم أم أمواتهم.

يقول درويش في "عابرون في كلام عابر" التي كتبها في بداية الانتفاضة الأولى ضد الاحتلال العسكري التي استمرت من 1987-1993م:

آن أن تنصرفوا و تموتوا أينما شئتم

ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا و تموتوا أينما شئتم

ولكن لا تموتوا بيننا².

يلاحظ درويش مدى التحام الفلسطينيين بأراضيهم وفقدان العلاقة اليهودية بمنطقة وطبيعتها أيضاً تكثف صورة اليهود المتجولين من مكان إلى مكان آخر والذين يمسون زمام الأراضي باستخدام القوة والأسلحة. يتناقض هذا الوصف بصورة تامة مع

¹ . إيلاد أمي بوسكيلا، الأدب الفلسطيني الحديث وثقافته، ص 113-114.

² . غازي مسعود: "محمود درويش شاعر العالم العربي"، الدستور الأردنية، 28 حزيران، 2002.

الفلسطينيين غير المدفوعين بقوة بل إنهم متماسكون بأراضيهم. ولا غرابة فيه أنهم يعيشون أياما مستقبلية كما لا يزالون يعيشون منذ أيام سابقة حتى الآن¹.

امتلكت هذه القصيدة مساحة قوية من التأثير على كل الأوساط حتى قد أثارت نقاشا حادا داخل الكنيست الإسرائيلي. كما تقول جريدة " الغد".

"بلغت خطورة درويش في القصيدة والثقافة والأثر إلى حد دفع الكنيست الإسرائيلي إلى نقاش حاد لقصيدته الإشكالية " عابرون في كلام عابر " التي فتحت باب التأويل على مصراعيه وأثارت زوابع استمرت طويلا كشأن شعر درويش الجديد خصوصا. ولعل هذه السمة هي التي جعلت كلمة درويش أمس كأنها ترد على من تطرقوا للبعد الجديد في أشعاره لا سيما أولئك الذين اتهموه بالابتعاد عن المقاومة. لقد تخيلت عن الشعر السياسي المباشر محدود الدلالات من دون ان أتخلى من مفهوم المقاومة الجمالية بمفهومها الواسع"².

يقول درويش نفسه:

"هذه القصيدة لم تكتب كقصيدة هي قصيدة كتبت بدافع من الغضب اللامحدود عندما شاهدت في التلفزيون الفرنسي كيف يقوم جنود إسرائيليون بتحطيم عظام فتية فلسطينيين بالحجارة. هذه أشهر صورة في العالم، وهي ترمز إلى ما نتعرض له من قمع. كتبت ذلك النص كاحتجاج، كما لو كانت حجرا، لكنها لم توجه ضد اليهود الإسرائيليين إنها ضد المحتلين. هذه قصيدة انتقاضة وهي لا تعكس صوتي الخاص بل هي الصوت

¹ . إيلاد أمي بوسكيلا، الأدب الفلسطيني الحديث وثقافته، ص 114-115

² . جريدة " الغد " ، 12 كانون الأول 2005.

الجماعي، بشعب غاضب ومقاوم للاحتلال، ومن الطبيعي أن يطالب المحتل بالإنصراف"¹.

لقد ما زالت هذه القصيدة موضوعا للنقاش باعتبار أنها مدرجة في قائمة الأعمال الشعرية أم في المؤلفات النظرية؟ يقول درويش بهذا الصدد. لم أدرج عابرون في كلام عابر في مجموعة شعرية لحرصني كما قلت دائما على تخليص الشعر مما ليس شعرا، أعني مما ليس في صلب العملية الشعرية وتمييز النص الشعري مما يرسم له من وظائف اجتماعية اي تخليص الشعر من السياسة المباشرة دون أن ننسى أن ليس في الوسع قراءة النص الشعري بشكل عام من دون الرجوع إلى مستوى سياسي فهو مستوى أدافع عنه ولا أعتذر منه"².

ومن يقارن "عابرون في كلام عابر" بقصيدة بيروت يلحظ أن المستوى السياسي في قصيدة بيروت ذو حضور لافت النظر، حضور يفوق الحضور السياسي في "عابرون في كلام عابر" فهل هو الدافع إلى حذف عابرون من مجموعة شعرية واختار عنوانها عنوانا له. ذلك السؤال الذي يثار باستمرار ويقدم درويش اجابات توضح عدم إدراجه في الأعمال الكاملة³.

أرقت هذه القصيدة قارئها الإسرائيليين الذين اعتبروها دعوة إلى دمار اليهود.

آن أن تنصرفوا و تموتوا أينما شئتم

ولكن لا تقيموا بيننا

آن أن تنصرفوا و تموتوا أينما شئتم

¹ .مجلة الشعراء، العدد الثامن، ربيع 2000، ص 292.

² .مجلة المشارف، العدد الثالث، الصادرة في حيفا في تشرين الأول عام 1995.

³ .مجلة الشعراء، العدد الثامن، ربيع 2000، ص 292.

ولكن لا تموتوا بيننا¹.

"عصافير بلا أجنحة":

أصدر محمود درويش أول ديوانه هذا من حيفا عام 1960م. ذاق فيه النصف الثاني من القرن العشرين نوق الحب و العذاب والكفاح والثورة والألم وعالج الشاعر فيه قضايا عالمية فيما بينها ثورات افريقية و جزائرية وغيرها. ونرى معظم قصائده تبحث الثورة العالمية كما يقول درويش نفسه عن موضوعه أن "هذه القصائد تقدر الحرية. وتقبل الشهداء. وتغني على شباك حبيبي. وتبكي مع شريد ضائع"².

عبر فيه الشاعر المأساوي عن موقفه بشأن ثورات أفريقية كما يقول أحد من صحابه: "بهذا المجال يجدر بنا أن نسجل موقفا لمحمود درويش الذي كان ديوانه الأول "عصافير بلا أجنحة" في معظمه غناء لثورات أفريقيا والذي غنى لثورات العالم بإخلاص وعمق وتلقائية تبعث على الإعجاب والتقدير و الذي قدم أيضا أجود رثاء عربي للشاعر الأسباني لوركا³.

"أوراق الزيتون":

نشر محمود درويش ديوانه الثاني أوراق الزيتون عام 1964م. لعب هذا الديوان دورا جذريا في بلوغه إلى أوج الشهرة كشاعر مقاومة عندما كان في الثانية والعشرين من عمره. كتب أول قصيدة من الديوان "أوراق الزيتون" 1964م، "بطاقة هوية" التي خاطب فيها شرطيا إسرائيليا بصيغة الأمر سجل أنا عربي.

سجل أنا عربي

¹ . عابرون في كلام عابر، محمود درويش، رقم القصيدة 69470، على www.adab.com.

² . محمود درويش، ديوانه، 1971، ص 23.

³ . غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، ص 41.

أنا اسم بلا لقب

صور في بلاد كل ما فيها

يعيش بفترة الغضب

جذوري...

قبل ميلاد الزمان رست

وقبل تفتح الحقب

وقبل السرو و الزيتون

.. وقبل ترعرع العشب

أبي... من أسرة المحراث

لا من سادة نجب!

وجدي كان فلاحا¹

لا نسمع في هذه الحوارية صوتا واحدا وهو صوت الشاعر الذي قد أصبح مغروسا في نفسه وصار جوابا بالسؤال يأتي بصيغة الأمر (سجل أنا عربي) ويتخذ فيها الشاعر موقفا ثابتا تجاه هويته العربية وشخصيته الفلسطينية وينادي حبه وحنينه من خلال انتماءه لأسرة فلاحية تشق الأرض بالمحراث وتنعم بذهنية ثرية وتحظى بروابط أرضية قوية. وكل ما في القصيدة من الألفاظ الأخرى مثل جذور وسرو وزيتون فإنما هي

¹ . محمود درويش ، "أوراق الزيتون" ديوانه، ص 132-133.

رمز للوطن مع أن شجرة الزيتون يزرعها صاحب الأرض و السرو. هذه النبتة التي تمتد جذورها افقيا وبالعكس شجرة الزيتون تمتد جذورها عموديا.

الشاعر يريد أن يقول إنه لا يبقى على الأرض إلا كل شيء أصيل له نسبة إلى الأرض وأصحابها أصلا، وإن كنا نجد أن الأرض تتقبل كل شيء وافد أو غير وافد لكن البقاء و الاعتبار دائما للرمز (الزيتون).

وهذا ما يصدقه الدكتور ابو حاقة قائلاً أنه "كيف يربط محمود درويش واضحا بين الأرض وبين الهوية هذه الهوية التي لها شأن في شعره فلقد أكدها في هذا الشعر أكثر من مرة ، وأكدها أكثر من كل مرة في قصيدته الموسومة "بطاقة هوية" التي هي من أشهر قصائده في الالتزام القومي".

سجل!

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم.. سيأتي بعد صيف¹

حالة حصار:

كان هذا الديوان مكتوبا في أقل من شهر عندما كان الشاعر محصورا في رام الله الذي أطلق عليه الجنود الإسرائيليون الدبابات عشوائيا وإنه كان يراها نفسه من نافذة بيته وإنهم لم يكتفوا بذلك فحسب وإنما داهمت الشرطة الإسرائيلية منزله وعبثت بأوراقه وقلمه

¹ . د. أحمد أبو حاقة "الالتزام في الشعر العربي" ص 649.

فأهدى ربيع هذا الديوان لصالح الانتفاضة وبدأ يقول الشعر تحت حصار الدبابات الإسرائيلية إلى أن اجتاحتها إسرائيل أخيراً. يقول الشاعر نفسه :

" لم تكن طريقة مقاومة إلا أن أكتب، وكلما كتبت أكثر أشعر أن الحصار يبتعد، وكانت اللغة وكأنها تبعد الجنود لأن قوتي الوحيدة هي قوة لغوية".

وتابع قائلاً "كتبت عن قوة الحياة واستمرارها و أبدية العلاقة بالأشياء والطبيعة. الطائرات تمر في السماء لدقائق ولكن حمام دائم. كنت أتشبث بقوة الحياة في الطبيعة للرد على الحصار الذي اعتبره زائلاً لأن وجود الدبابة في الطبيعة وجود ناشر وليس جزءاً من المشهد الطبيعي"¹.

واللافت للنظر إلى أن درويش لم يخاطب رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون في أي قصيدة من قصائد الديوان وقال درويش بشأن ذلك إن شارون لا يستحق قصيدة فهو يفسد اللغة. هو متعطش للدماء ولديه حقد كبير ولكن المشكلة في الدعم الأميركي الذي يمنحه بعد كل مجزرة وساما بأنه رجل سلام.

يقدم الشاعر ومضة عن ماجريات إسرائيلية في رام الله فائلاً:

إلى قاتل..

لو تأملت وجه الضحية وفكرت..

كنت تذكرت أمك في غرفة الغار ..

كنت تحررت من حكمة البندقية وغير رأيك..

¹ . جريدة الدستور الأردنية ، 28 حزيران 2002.

ما هكذا تستعاد الهوية..¹

بهذه الكلمات يدفع الشاعر القاتل الإسرائيلي إلى محاكمة نفسه في إحدى قصائد ديوانه الأخير " حالة الحصار " ويصف حالة الحصار بعدة قصائد منها:
الحصار هو الانتظار..

هو الانتظار على سلم مائل وسط العاصفة..

الحصار يحولني من معن إلى وتر سادس في المكان ..

أيها الساهرون ألم تتعبوا من مراقبة الضوء في لمحنا..

ومن هوج الورد في جرحنا..

ألم تتعبوا أيها الساحرون..²

ولكن في غمرة هذا الحصار يظهر الأمل في شعر درويش:

بلاد على أهبة الفجر..

لن نختلف على حصة الشهداء من الأرض..

ها هم سواسية يفرشون لنا العشب نألف..³

ويخاطب درويش في إحدى قصائده الجنود الإسرائيليين الذين يحاصرون المناطق

الفلسطينية قائلاً:

أيها الواقفون على العتبات ادخلوا..

¹ . محمود درويش، " حالة حصار " ديوانه، ص 29.

² . نفس المصدر، ص 32-33.

³ . نفس المصدر، ص 51.

واشربوا معنا القهوة العربية ، قد تشعرون بأنكم بشر مثلنا..

اخرجوا من صباحاتنا نطمئن إلى أننا بشر مثلكم..¹

ويتناول محمود درويش في ديوانه الذي يتضمن مائة صفحة وقد خصص ريعه للانتفاضة الفلسطينية ويحدد مفهوما واضحا سلميا، فيقول في إحدى قصائده:

السلام نهار أليف لطيف خفيف الخطا لايعادي أحد..

السلام قطار يوحد سكانه العائدين أو الزاهبين إلى نزهة في ضواحي

الأبد..

السلام هو الاعتراف علانية بالحقيقة..

ماذا صنعتم بطيف القتل..

السلام هو الانصراف إلى عمل في الحديقة ..

ماذا سنزرع عما قليل..²

تمثل أشعار هذه القصيدة صورة جلية واضحة عن حوادث أصيبت بالشعب الفلسطيني من القتل والمذبحة الجماعية والقنابل و اليأس و القنوط و الفرحة والابتهاج و الحب و المروءة.

و نجد في هذه القصيدة " الحصار " صوت فلسطين متناثرا في الاسهم الصغرى وخلصتها أن عاطفة الحب والأمن والسلام والمروءة تتمكن من تحويل العدو إلى الصديق.

¹ . المصدر السابق، ص 66.

² . المصدر السابق، ص 94.

سرير الغربية :

يتكون معظم ديوان "سرير الغربية" من أشعار أهدى درويش ريعها لصالح حب بلده المحبوب حينما كان مسجوناً في إسرائيل للمناخ السياسي الناتج عن انتفاضة الأقصى التي اضطرم نارها في أواخر التسعينات، وهو أول هدية غالية مخصصة شعرية مازال يحظى بها أبناء الوطن حتى الآن. يروي هذا الكتاب من جهة رواية الحب والغرام الوطنية ومن ثمانية يتناول أشكال المقاومة التي واجهت الشعب الفلسطيني لغرض واحد وهو تحرير فلسطين من السلاسل والقيود والسجون الإسرائيلية وإزالة مخاوف الموت واستئصال جذور المقاومة. كأن درويش ذهب إلى سرير الغربية عام 1998 من بوابة الحب بغية إلقاء كرة السلام في المنطقة المضطربة.

يقول درويش كما جاء في جريدة الدستور الأردنية إن ديوان سرير الغربية 1998، "أول كتاب له مكرس للحب كلياً. ورغم ذلك، حتى القدرة على الحب شكل من أشكال المقاومة، يفترض أن تكون نحن الفلسطينيون مكرسين ربيع، لذا فالتعبير عن هذا مقاومة لأن يكون موضوعنا مملاً علينا، إذا كتبت قصائد حب فإنني أقاوم الظروف التي لا تسمح لي بكتابة قصائد الحب"¹.

بعض من الناس يرون أن هذا الديوان قد تخلى عن القضية ولكن شعر درويش وحضوره في رام الله يروي قصة مختلفة إذ يقول "انتظر اللحظة التي أستطيع فيها القول: إلى الجحيم بفلسطين. ولكن ذلك لن يحصل قبل أن تصبح فلسطين حرة، لا أستطيع تحقيق حريتي الشخصية قبل حرية بلدي، عندما تكون حرة، أستطيع لعنها"².

"قصيدة مديح الظل العالي" :

¹ . جريدة الدستور الأردنية ، 28 حزيران 2002.

² . نفس المصدر

هذه القصيدة تتحدث عن خروج الفلسطينيين من بيروت إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982م كما تتناول أيضا كثيرا من مآسي المقاومة وانطباعات الشاعر الذي شاهد بنفسه حوادث السقوط وكيف تعرض لها كثيرون من رفقاء كفاحه وكيف وضع الموساد خلال مؤتمر عالمي المتفجرات تحت سرير ماجد أبو شرار، وبعد موته كتب درويش في إحدى قصائده:

أصدقائي لا تموتوا!

جعل محمود بيروت محطة ارتكازه حيث أصبحت حياته زاخرة بالنشاط الأدبي و الثقافي وكانت حياته تعيش هناك قصفا وحشيا ورسا صا مدمرا وإنه كان غير ناضج لكنه كان معروفا بين المقاتلين، وأثرت هذه العملية الفدائية في درويش أثرا عميقا على مستويات عديدة فنظم هذه القصيدة الطويلة ووصفها قصيدة تسجيلية تعكس صورة صادقة عن المأساة الألمية التي يصيب بها العالم العربي بل الإنسانية كلها¹.

قصيدة بيروت:

كتب درويش هذه القصيدة في ظروف متدهورة سائدة في بيروت في مطلع الثمانينات وهي عبارة عن حدث عاشه لحظة كتابته وكان شاهدا عليه. كانت بيروت تدمر وكانت الطائرات الإسرائيلية تقصفها بالقنابل وكان هذا أيضا أمام عدسات التصوير وكان بالكاد أن يموت الشاعر في ظل هذا الأوضاع السوداء. وقد أشار الشاعر إلي أن زمن كتابة هذه القصيدة كان يتزامن وزمن الموت والدمار وأنا أكتب شعرا "أي أموت الآن"².

والعبارة التالية تنص على هذا الحدث الهام لدى كتابة قصيدة بيروت.

¹ .مجلة الشعراء، العدد الثامن، ربيع 2000، ص 292.

² .مجلة المشارف، العدد الثالث، الصادرة في حيفا في تشرين الأول عام 1995.

"شهد زمن الكتابة الأولى الحرب الأولى الأهلية في لبنان وكان الشاعر هناك في بيروت قريبا من الفدائي الذي يقاتل. كانت الأنظمة العربية صامتا على ما يجري. أما الشاعر الذي لم يكن يحمل السلاح ولم يكن قادرا على إيقاف المجازر فلم يقل إلا على كتابة الشعر، فليس أمام الشاعر إلا أن يكتب شعرا واضحا يقول فيه الحقيقة على الفدائي بترداده يواصل الدفاع والمقاومة، وهذا ما لا ينجزه الشعر الرمزي. ومن هنا صرح الشاعر فلتذهب أصول الشعر ولينكشف الرمز، ولم يكن أمام الشاعر في حينه وهو في بيروت، إلا الانحياز للثورة وقول الحقيقة كما تبنت له. ولم يكن الزمن الذي أعاد الشاعر فيه النظر في القصيدة مشابها للزمن الأول ولم يكن في حالة مواجهة ساخنة تدفعه إلى قول ما قال يوم كانت الثورة تحاصر وبيروت تدمر ومخيم تل الزعتر يباد أمام سمع الدنيا وبصرها"¹.

عاشق من فلسطين:

لقد كتب الشاعر محمود درويش هذا الديوان في زنزانة السجن في النصف الأول من عام 1966م. إنه لعب أيضا دورا مماثلا في وصوله إلى خريطة العالم العربي كشاعر مقاومة وإنه ليس ترجمة عن مشاعر مترعرة في قلوب أبناء فلسطين فقط بل عبارة عن علاقة الرجل بامرأة وعلاقته بوطنه و العلاقة بين الشخص والأرض، بين العلاقة الفردية و العلاقة مع الوطن، بين الشخص و الشعب.

النص الآتي يصور نفس الشيء:

" في السجن كما يبدو، كتب الدرويش "عاشق من فلسطين" وهي مجموعة من القصائد ينتظمها خط واحد، أنه ليس تصعيدا عاطفيا مشحونا للعلاقة مع الوطن فقط بل هو دمج

¹ . <http://www.sis.gov.ps/Arabic/royal/1/page/html>

كلي في القيم التي ظل الشعراء يعتبرونها موزعة بين علاقة الرجل بأية امرأة وعلاقته بوطنه¹.

تضد الحبيبة في قصيدة "عاشق من فلسطين" شغافة إذ حد كبير ويضد جمالها هو أيضا ملخصا في كلمة ساحرة: " فلسطينية"، وتبدو هذه الكلمة أكثر من كافية:
" .. واقسم:

من رموش العين صوف أخبط منديلا إلخ..²

وهكذا يعبر الشاعر عن حبه تجاه حبيبته بالسطور الآتية:

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد و الموت³

يرجع درويش إذ عاشق من فلسطين ليقدّم تفسيراً رائحاً للمرحلة الأولى من شعر شباب الأرض المحتلة العرب الذين لم يدخروا جهودهم في تجسيد الغزل بعد النكبة المباشرة وليس بإمكان الدرويش أن يأتي بحصيلة إذ هذا المستوى الفني إلا بعد أن ضربت التجربة أطنابها و دخلت المأساة في صميم القلب فنالت رواجاً عظيماً وقبولاً كبيراً وظهرت هذه الحياة كلها بصورة متلاحمة يومية ذاتية وعامة في آن واحد⁴.

¹ . غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966، ص 41.

² . ديوان محمود درويش 1971، ص 258.

³ . نفس المصدر ، ص 260.

⁴ . غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966، ص 41.

ومجمل القول أن درويش يفصح في هذه القصيدة من بداية شعرها إلى آخرها عن
عواطف مليئة بدواعي الحب الوطني وألم الاحتلال والأمل الأبدي ويطمع حرصه دائم
تجاه وطنه، وكل ذلك يتجلى من قصيدته " عاشق من فلسطين"¹.

¹ .مجلة فلسطين، ربيع 2002، ص 78.

الفصل الثاني

مريد البرغوثي نشأته ودراسته
وإسهاماته الأدبية

مريد البرغوثي نشأته ودراسته وإسهاماته الأدبية

ولد مريد البرغوثي في 8 يوليو عام 1944 في قرية دير غسانة قرب رام الله وكان له أربع إخوة. تلقى تعليمه في مدرسة رام الله الثانوية ثم اتجه في منتصف الستينات للدراسة في جامعة القاهرة بمصر حيث درس الأدب الإنجليزي (1963-1967). كان البرغوثي يكمل العام النهائي لدراسته في الكلية حينما بدأت الحرب الإسرائيلية العربية المستعزقة لستة أيام في عام 1967 وهذا هو العام الذي احتلت فيه إسرائيل الضفة الغربية ومنعت الفلسطينيين الذين تصادف وجودهم خارج البلاد من العودة إليها. يقول البرغوثي بهذا الصدد في كتابه الذائع الصيت رأيت رام الله:

"نجحت في الحصول على شهادة تخرّجي وفشلتُ في العثور على حائطٍ أُعلّق عليه شهادتي"¹.

و بحلول نهاية الحرب، كانت إسرائيل قد استولت على غزة و الضفة الغربية و منع البرغوثي شأن العديد من الفلسطينيين المقيمين في الخارج من العودة إلى وطنه. ذهب البرغوثي بعد الحرب في البداية للعمل كمعلم في الكلية الصناعية في الكويت. عاد إلى القاهرة في أوائل السبعينات ودرس الإنجليزية لطلاب الحقوق كما عمل كمعلق سياسي في راديو فلسطين وفي الوقت نفسه بدأ يتابع اهتمامه بالأدب والشعر و سرعان ما نشر كتاباته في دوريات الأدب و"المواقف" في بيروت و"الأهرام" في القاهرة . في عام 1968م

¹ . مريد البرغوثي، رأيت رام الله، ص 7.

تعرف على الرسام الكاريكاتيري الفلسطيني الشهير ناجي علي الذي كان يعمل في الكويت¹.

في عام 1970م تزوج البرغوثي الروائية المصرية و الأكاديمية رضوى عاشور صاحبة "الطريق الى الخيمة الأخرى" و"الرحلة" و"سراج" و"غرناطة" و"أطياف" و"مريمة والرحيل". اجتمع الاثنان قبل سنوات عندما كانا طالبين في قسم اللغة الإنجليزية و آدابها بجامعة القاهرة وكان لهما طفل سمياه تميم الذي ولد في عام 1977م بمصر وهو أيضا شاعر وأكاديمي وعالم سياسي يكتب أعمدة سياسية في مختلف الصحف و الجرائد ذات الصيت العالمي وهو الآن مستشار اللجنة الإقتصادية والإجتماعية لغرب آسيا التابعة للأمم المتحدة وقد كتب مجلدين من التاريخ و الفكر السياسي "القومية الحميدة: بناء الدولة القومية تحت الإحتلال، حالة مصر المنشورة من قبل المكتبة العربية المصرية في عام 2008م والأمة والدولة: الدولة القومية والشرق الأوسط العربي الذي تم نشره في نفس العام².

غادر الزوجان الكويت لمصر بعد أقل من عام من الزواج في عام 1972م، نشر البرغوثي كتابه الأول من الشعر من دار العودة ببيروت، 2005م، وقد نشر منذ ذلك الحين 12 كتابا من الشعر وآخرها منتصف الليل (بيروت 2005 رياض الرئيس للنشر). و جاءت أعماله الكاملة في عام 1997م. و قد نشر ديوان الشمس الصغير، أول كتاب شعر له في الترجمة الإنجليزية و قد نشرت الترجمات الإنجليزية من شعره في الأهرام الأسبوعية و تائمز لتريي سبليمنت وغيرها وقد ظهرت إحدى قصائده الأكثر شهرة كصورة غلاف لجمعية Pen International وفي خريف عام 1977م تم ترحيل البرغوثي من مصر بمناسبة زيارة الرئيس المصري آنذاك أنوار السادات المثيرة للجدل

¹. شخصيات فلسطينية ، www.passia.org ص 20.

². Tamimbarghouti.net .

لإسرائيل ولم يسمح له بالعودة إلا بعد 17 عاما فاضطرت زوجته رضوى عاشور و ابنهما تميم إلى قضاء معظم السنوات 17 المقبلة وحيدين انعزالا عن مريد الذي عاش في بودابست كمثل لمنظمة التحرير الفلسطينية في الإتحاد العالمي للشباب الديمقراطي وكملاح ثقافي فيها¹.

ونهايا سمحته اتفاقية أوسلو أخيرا بالعودة إلى الضفة الغربية وفي عام 1966م عاد إلى رام الله بعد 30 عاما من المنفى مما أصبح استلهاما له لكتابة سيرته الذاتية الروائية الشهيرة رأيت رام الله التي نشرتها دار الهلال (القاهرة - 1997) وفازت بجائزة ميدالية نجيب محفوظ للأدب في نفس العام. كما ظهر في الكتاب العديد من الشخصيات الثقافية الفلسطينية الهامة بما في ذلك غسان كنفاني و ناجي العلي و ترجم إلى عدة لغات عالمية من إنجليزية و فرنسية وإسبانية وغيرها . يقول إدوارد سعيد في مقدمة له ل "رأيت رام الله " واصفا الكتاب أنه:

"واحد من أرفع أشكال كتابة التجربة الوجودية للشئات الفلسطيني التي نمتلكها الآن"².

وقد نشر البرغوثي العديد من المقالات باللغة الإنجليزية والعربية يبرز قوة الشعر واصفا أن إحدى معجزاته الساحرة هي أن الشعر من خلال شكله يمكن أن يقاوم محتوى الخطاب الإستبدادي و الشاعر من خلال اللجوء إلى اللغة الملموسة و الفيزيائية ينادي ضد التجريد والتعميم والإغراق واللغة البطولية للجنرالات ذات طبيعة حادة و متهورة والعشاق الزائفين على حد سواء وقد بدأ القرن الحادي العشرون بطريقة كارثية، إننا نشهد لغة الفصل العنصري الدولية وهي لغة تحدد وتعرف، هي لغة تقسم القيم والفضائل و

¹ . د. سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ص197.

² . مريد البرغوثي، رأيت رام الله، ص 1.

تفصل الأمم في فئتين من الخير والشر. فالإرهاب الفردي و إرهاب الدولة و الأصولية و التعصب يسود كلا الجانبين من الإنقسام .

إن اللغة والنوايا وأفعال الإرهابيين و دعاة العولمة والإمبرياليين الجدد ودعاة الحرب كلها تعرض على حد سواء حياة الإنسان للخطر و تجعل كوكبنا مكانا أقل أمانا ومع ذلك فإن الشعر لا يزال واحدا من الأشكال المحيرة في أيدينا لمقاومة الغموض و الصمت و بما أننا لا نستطيع أن نغسل كلمات الكراهية الملوثة بنفس الطريقة التي نغسل بها الأطباق الدهنية بالصابون و الماء الساخن فإننا نحن شعراء العالم نواصل كتابة قصائدنا لاستعادة احترام المعنى و إعطاء معنى لوجودنا¹ .

قرأ البرغوثي شعره و نثره في معظم المدن العربية و في عواصم و مدن إنجلترا و فرنسا و إيطاليا و بلجيكا و سويسرا و البرازيل و أسبانيا و شارك في عدد كبير من اللقاءات الشعرية و معارض الكتاب عبر العالم و هكذا قدم محاضرات عن الشعر الفلسطيني و العربي في جامعات القاهرة و فاس و أكسفورد و مانشستر و أوسلو و مدريد و غيرها كما تم اختياره للجنة التحكيم لجائزة الرواية العربية لعام 2015م

جوائز وتكريم

نال جائزة نجيب محفوظ للعام 1997 من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لسيرته الذاتية رأيت رام الله عن عودته إلى مدينة رام الله عام 1996 بعد غياب دام ثلاثين عام.

وفي كانون الأول/ديسمبر 2000 ، منحته وزارة الثقافة الفلسطينية جائزة القصيدة الفلسطينية كجزء من جوائز فلسطين الثقافية للعام 2000.

¹ . Verbiage, New International Magazine (2003-issue) at newint.org .

الأعمال الشعرية التي صدرت له:

- الطوفان وإعادة التكوين - شعر - دار العودة / بيروت عام 1972م
فلسطيني في الشمس - شعر - دار العودة / بيروت عام 1974م
نشيد للفقر المسلّح - شعر - الإعلام الموحد / بيروت عام 1977م
الأرض تنشر أسرارها - شعر - دار الآداب / بيروت عام 1978م
قصائد الرّصيف - شعر - المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت عام 1980م.
طال الشّتات - شعر - دار الكلمة / بيروت / نيقوسيا قبرص، عام 1987م
رنة الإبرة - شعر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / عام 1993م
منطق الكلمات - شعر - دار المدى - عمّان - عام 1996م
ليلة مجنونة - شعر - الهيئة العامّة للكتاب / القاهرة عام 1996م
الناس في ليلهم - شعر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت عام 1999م
زهر الرمان - شعر - دار الآداب - بيروت عام 2000م
منتصف الليل - شعر - دار رياض الرئيس - بيروت عام 2005م
مجلّد: الأعمال الشعريّة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عام 1997م

الأعمال النثرية التي صدرت له:

- رأيت رام الله - دار الهلال / القاهرة، عام 1997م
ولدت هناك ولدت هنا: 2009 دار رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، (الجزء الثاني من "رأيت رام الله")

وباللغة الإنجليزية صدر له ديوان MIDNIGHT AND OTHER POEMS من ARC Publications in the UK عام 2008¹.

إسهاماته في الأدب العربي شعرا ونثرا:

إن الأديب مريد البرغوثي هو شاعر الوطن المهاجر، شعره يأخذ صورة انسانية عميقة. إنه يبتعد عن اللغة الخطابية، ويدخل في غمار الرمزية والجمال، فيبتعد بشعره عن الرتابة والمألوف ليعرف القارئ بعالم من الجمالية الغير مصطنعة التي تعرب عن هموم شعبه وأماله في قالب يجذبك لقراءة شعره ونثره بولوع. دبج البرغوثي العدد الكبير من القصائد والأشعار ونشرها في الصحف والمجلات والأدبيات الثقافية وقام بإصدارها في كتب ومجاميع شعرية. ونبرة قصائده تكفي الإيضاح بأنه لم ينحرف عن خط من يعرفون بشعراء المقاومة. وكأنما أثرت مرحلة حزيران 1967 وما بعدها جيلا كاملا من الشعراء، في الداخل وفي الخارج، وهذا ما نراه مختلفا في أدب النكبة الذي برز تقاؤليا في أشعار درويش والقاسم وزياد، وغلبت عليه سمة البكاء في أشعار شعراء المنفى أمثال أبو سلمى وغيره.

نشر الشاعر مريد عام 1972 ديوانه الشعري الاول "الطوفان وإعادة التكوين"، وكانت تتألف من قصائد نظمها ما بين آب 1967 وآذار 1971، وأصدر عام 1974 مجموعة شعره الثانية "فلسطيني في الشمس"، وقد ألمح في القصيدة التي حمل اسمها عنوان المجموعة الى الفلسطيني الصغير في البلاد، هذ الذي يريد كدم الدائرة. وأصدر في عام 1978 مجموعته الشعرية الثالثة "نشيد للفقر المسلح"، وكتب فيه عن فترة الاشتباك، ووصف البطل الذي حملته الريح ما يفوق احتمالها، لان الثورة تأتي في الأوقات الحرجة وتعطي الوعد الجريء لجسور يستحقه. وكان مريد يؤمن بالتفائل، ويعتقد أن الليل اذا كان مكتملا، فإن الصبح ايضا سيكتمل:

¹ . . شخصيات فلسطينية ، www.passia.org ص 20.

ومغالق الطرق التي انفتحت

يرتاذا البطل

والبادئون مسيرة الفقراء

لا بد ان يصلو¹

أصدر الأديب في نفس العام "الأرض تنشر أسرارها". تحدث فيها عن سعيد القروي وأتي الشاعر على ذكر مشاركة سعيد الرمز في الثورة منذ 1935م. وهاجم عز الدين القسام في تشرين ثاني 1935، وكيف افتضحت مواقعه فحته سعيد على الانسحاب، وهنا يجلب صوت الأول: "موتوا شهداء"، وتنب الشوارع في عام 1936م ويصير ذلك اليوم علامة مضيئة، ولكن الأمر يختلف عام النكبة، فمنذ يوم الخروج خسر الأطفال طفولتهم، وهنا يأتيه صوت الشيخ:

كل وقت صالح للبدء، فابدأ

إنما الحاضر ماض

والى مستقبل الأيام نمشي²

ويستمر سعيد في رحلته، وتصير رحلة الوجد الطويلة، وكلما قالوا انتهى فاجأتهم أني ابتدأت. وهكذا كانت الثورة تبرز من كل معركة أكثر شدة وقوة. الحق أن بعض "قصائد للرصيف" (1980) يشوبه حس تشاؤمي سوداوي، الا أن الرجاء لم يزل ملازما للشاعر. ويبقى ملازما له ايضا عقب الخروج من بيروت. يحس الشاعر أن الهجمة شرسة ويرى أن الصمت العربي لقد وصل إلي درجة التقاعس والتراخي، وعلي كل هذا وذاك نراه في

¹ . مريد البرغوثي، الأعمال الكاملة 1997، ص 630.

² . مريد البرغوثي، الأعمال الكاملة 1997، ص 597.

قصيدته الجميلة جدا، القصيدة التي حمل اسمها فيما بعد عنوان المجموعة الشعرية،
ينهيها بقوله:

أنا راكض الدهر اللوح أصبح من
خيم الضيافة والجحيم المستتر
ومن المطار من القطار من العوا
صم والقفار من الموانيء والجزر
سأصبح صيحة من يعاند موته
سأصبح صيحة من يعاند موته¹

وعندما حصلت الانتقضة كتب مريد عدة من القصائد التي لا يقرها حس تقاؤلي. نجد
في مجموعته "رنة الابرة" (1993) قصيدة "ق. و.م" التي تعظم المنتقضين، فقد تقلبت
فصولنا كلها؛ الصيف والشتاء والربيع والخريف، الى فصول واسعة العطاء، وهكذا
فاضت، بخلاف نشرة الأخبار، بالمطر:

ليذهب النشيد عاليا الى مقامهم

قيادة بلا زخارف

وقادة بلا صور

قصورهم طينية

وبرلمانهم حجر²

¹ . المصدر السابق، ص 369.

² . المصدر السابق، ص 269.

ويعرب في قصائد الانتفاضة، تماما كما أعرب في "طال الشتات"، عن ضياع أمله في الأمة العربية التي وقفت تشاهد ما يحصل مكتوفة الأيدي، وتصير كلها:

أمة في البرد

تنظر بين أسلاك الحدود

الى منازلها الحزينة

وهي حائرة الخطى بين الكرامة والركام¹

وشعره لا يختلف في هذا عن أشعار درويش والقاسم. واتخذ ضياع الأمل في مرحلة السلام، والقصيدة السابقة المكتوبة في أثنائها أي عام 1992، بعدا آخرًا. لا يحس مرید بفقدان الأمل في الأمة العربية فحسب، بل خيب أمله في الصحاب الذين كان يمشي معهم في الطريق المشترك.

يحمل مرید البرغوثي همّ الوطن وهمّ شعبه الذي يواجه أمر ما يتصور يوميا ويموت كل دون أن يجد من يتفكر لأمره، أو يعلي صوته احتجاجا ضد ما يجري له، لذلك نجده في قصيدة "لا بأس" يقبل بالموت قانطا من كل الذين لا يعلمون من الاحتجاج إلا رفع الإستدعاءات والتنديدات.

لا بأس أن نموتَ في فراشنا

على مَحْدَّةٍ نظيفةٍ

وبين أصدقائنا

لا بأس أن نموتَ مرّةً

¹ . المصدر السابق، ص 277.

وَنَعْقَدَ الْيَدَيْنِ فَوْقَ الصَّدْرِ

ليس فيهما سوى الشُّحوبِ

لا خُدوشَ فيهما ولا قُيودُ

لا رايَةً

ولا عَرِيضَةً احتِجاج¹.

فالشعر عند مريد البرغوثي ليس مجرد كلمات وجمل تحمل جمالا لغويا، وإنما يمثل اكتشاف المحير من العادي في كل مرحلة من مراحل حياتنا.

ومن يدرس قصائد مريد يري أنها قصائد إيحائية بسيطة و تحمل ايقاعات متعددة، وتقدمنا لغة سهلة تقربها من لغة الخطاب اليومي كما تجد فيها تبصرا عميقا ونبوءة ووحدة بنائية ونسيجا متشابكا، واندماجا بين الفكر والإحساس وارتباطا عضويا بالمكان وقضية الوطن وتظهر خلجاته واحاسيسه وتوجهاته ومشاربه الثقافية والسياسية والفكرية، ويستشف القارئ فلسطين حاضرة فيها بفعجة وشجن وغيظ. تحكي هذه الأشعار عن الوطن والأرض وعبق التاريخ والمنفى والاغتراب والتشريد والمخيمات والانتفاضة وتصوّر الجرح الفلسطيني وحلم العودة وتوق الانسان الفلسطيني لمعانقة ضوء الشمس والخلاص الوطني وسواها من المواضيع وأغراض الشعر الوجداني والوصفية المملوءة بالأخيلة والاستبصار والآمال الباهرة والحياة الحافلة بالأبعاد الوطنية والانسانية والاستعارات الدينية والتاريخية والأسطورية وبالتشبيهات المستترفة والرموز الإبداعية والصور الشعرية المبتكرة².

¹ . مريد البرغوثي، قصيدة لا بأس (الموسوعة العالمية للشعر العربي، www.adab.com) رقم القصيدة 74037.

² . محمود شريح، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، ص 41.

والآن يجدر الإشارة إلي أفكار رئيسية عما يتوفر لدينا من أعمال مريد البرغوثي الشعرية و النثرية أمثال "منتصف الليل"، "رأيت رام الله". ومنذ أن العمل الأخير هو نموذج ألب المنفي للبرغوثي خصصنا له بابا نعالجه فيه بالتفصيل وأركز هنا علي أشهر رائعته الشعرية "منتصف الليل".

منتصف الليل:

منتصف الليل (2005)، يتصارع مع خيارات المنفى الحديث. وأعتقد أن منتصف الليل يفتح نافذة إبداعية من مواقع تاريخية متعلّقة وواجهات شخصية تستجوب مفاهيم الحداثة والتقدم والنصر والخسارة والقومية والوطنية. من بين المعضلات السياسية يظهر الجمال في كلمات المقاومة والتحدي، ومدافع التمرّ مع المسؤولية الأخلاقية العميقة تجاه الإنسانية. من داخل اليتيم الروحي والاغتراب، يبني البرغوثي شعرا واضحا ملموسا وجماليا يعبر عن الذاكرة الفلسطينية، عابرا حدود التاريخ والجغرافيا والتقاليد الألبية. تقوم صور منتصف الليل الشعرية المعطاءة بإعلاء وضع المنفى الفلسطيني جنبا بجنب الأصوات الفريدة الأخرى في جميع أنحاء العالم في دراسات الذاكرة.

منتصف الليل هو قصيدة طويلة تتألف من قصائد صغيرة عن المنفى والذاكرة والتاريخ والكتابة. مندمجة في المحالّثة هي مشاعر الشاعر المتكلم وأفكاره المتعلقة بالأسرة والمكان والماضي والحاضر والمستقبل والنزوح والبلد والأمة وكتابة ومسؤولية الشاعر. منتصف الليل يفتح نافذة للخروج من فضاء الشاعر الاغترابي، نافذة تسعي إلي الحرية من التشرّ المتعلّ الذي جربه الفلسطيني منذ عام 1967، عندما احتلت إسرائيل باقي أراضي فلسطين. وتتوخي القصيدة أيضا تجربة فلسطينية مشتركة وهي رؤية تدمج ظروف النكبة عام 1948، عندما أنشئت إسرائيل وأصبح أكثر من 750,000 فلسطيني بلا ملجأ ومأوى.

بحوار حميم وغنائي مع شخصيات متعددة، وانطباعي في الترتيب الجمالي، يصوغ منتصف الليل عددا وافرا من الرؤية من الذاكرة فيما يتعلق بالمنفى حيث يفحص البرغوثي الخيارات المتاحة له ولشعبه. من الذاكرة يدون تاريخ فلسطين، ويعيد وضع الخيال كوسيلة ناجعة لتحمل استمرارية الاستعمار والاحتلال¹.

تعتمد هذه القصيدة علي تقنية روائية مألوفة تتجلى باستخدام "تيار اللاوعي"، أو ما يمكن تسميته الاسترسال الشعري، الذي يلغي التراسل المنظم للأفكار، عبر تكثيف الزمن وضغطه إلى لحظة تذكّر واحدة، تتيح للشاعر القيام بسبر سيكولوجي للذات في علاقتها المركبة مع عالم خارجي يتصف بالقسوة والعبث. بيد أن البرغوثي لا يوظف شخصيات أو يعتمد حكايات متداخلة، تمزج بين أساليب أدبية متصارعة، كما أنه لا يسمح للغته بالنكوص إلى السردية، إذ يكتفي بتقديم مونولوج شعري طويل، منضبط البلاغة، وعقلاني البنية، يجري على لسان متكلم مجهول الملامح، هو أقرب إلى الصوت منه إلى الشخصية، يراقب عقرب الساعة وهو يقترب شيئاً فشيئاً من منتصف الليل في إشارة إلى انقضاء عام، وقدوم آخر. فالشاعر يرصد تلك اللحظة من رأس السنة، حين ينتقل العالم من فلك إلى آخر. غير أن النقلة هنا بالنسبة إلى هذا المتكلم تحديداً، تشي بسخرية مريرة، فالانقلاب ظاهري محض وهو بمثابة الدوران في المكان أو استرجاع لزمان متوقف، فالليل الذي انقضى ليس سوى فاتحة ليل جديد:

"انطبق العقربان:

إنه منتصف الليل،

النصف الذي مضى، ليل

¹ . Salam Mir, Mourid Baraghouti: The blessing of exile, Arab studies quarterly, vol. 37, issue. 4, page. 311 .

والنصف الآتي، ليل¹."

تبدأ القصيدة الطويلة بداية تحمل شيئاً من التقريرية الآلية حيناً والتجريد حيناً آخر في تناولها للزمن وحركته من خلال رمز جامد لهذه الحركة الدائمة هو الرزنامة أو "اليومية". يقول الشاعر:

"هذا ما تستطيع أن تفعله: أن تُلقي بها في السلة

الرزنامة كلها، بشهورها الاثني عشر

ترمي مضارعها في الماضي

كأنها "حقاً" غابت، مع آخر أجراسها

مباهجها لك أنت

وأوجاعها إلى النسيان

لكنك كل ليلة

منذ الليلة

ستسمع أصواتاً في العتمة

خشخشة أوراقٍ تعبر النافذة

وقع خطى تريدها

وخطى لا تريدها

¹. مرید البرغوثي، منتصف الليل، 2005، ص 91.

هديل مسرّات

وهمهمة أحلام

ولأن العالم لا تعجبه كل ملامح سكانه

ستسمي غرفتك العالم!¹

تقول القصيدة هنا أنه إذا كان الحاضر يسقط في الماضي على الفور، والآتي يكرّر الماضي، فاللحظة التي يرصدها البرغوثي دائرية تماماً، بلا لون أو رائحة، حيث الزمن المتجمد في اللحظة صفر، والانقلاب الشكلي لا يعدو كونه تكراراً نيتشويماً أدياً للمأساة، سواء أكانت المأساة ذاتية أو كونية، وهذا ما تلخّصه الروزنامة التي ترمز إليها حياة عابرة، موقته، وسريعة، عاشها الشاعر في المنفى، بعيداً من وطنه، تتقاذفه هلامية الزمان والمكان.

و يقول في وصف لما يمكن أن يسمى "قوبيا أو إرهاب الفلسطينيين" يستغرب الشاعر قائلاً:

ايها الاعداء صار الانتصار

عادة يومية كالخبز في افرانكم

فلماذا هذه الهستيريا

ولماذا لا نراكم راقصين؟

كم من النصر سيكفيكم لكي تنتصروا؟

¹ . المصدر السابق، 2005، ص 7.

ايها الاعداء "شيء ما" يثير الشك فيكم

ما الذي يجعلكم في ذروة النصر علينا

خائفين؟!¹

يجد القارئ في نهاية القصيدة نهاية مؤرقة. يجد في بعض ما تثيره سؤالا عن نهايات

الامور. و هو سؤال مغلف بالحيرة التي تقوم بينها وبين اليأس "حدود مشتركة". يقول:

في ليلة كهذه

حيث تموت نجوم وتولد اخرى

حيث لا الميت ميت

ولا المولود مولود

حيث لا السيد سيد تماما

ولا العبد عبد تماما

حيث للاجراس صمتها

وللصمت اجراسه².

يختتم الشاعر مونولوجه الطويل هذا، بتشيده على ثيمة التكرار وإرهاصات العبثية، على

المسار ذاته على الحائط ذاته/ علق الروزنامة الجديدة/، هذا ما تستطيع أن تفعله.

صحيح أن الإطار الزمني الذي تدور فيه أحداث القصيدة لا يتعدى انقلاب عقرب

¹ . المصدر السابق، 2005، ص 105.

² . المصدر السابق، 2005، ص 115.

الساعة، واستبدال روزنامة بأخرى أو ربما حياة ورقية بأخرى لكن زمنها النفسي أو المجازي يختزل أعواماً طويلة من الهزائم، في عملية تكثيف للزمن، قائمة على استرسال قلق، فالقصيدة تبدأ بشعور عميق بالعبث، وتنتهي بنبرة ترقّب وحيرة، تترك المعنى معلقاً، والغد معلقاً، من حيث استحالة الحسم، واستحالة تفضيل ليلٍ على آخر¹.

فالخلاصة أن عمل البرغوثي متميز بنفس شعري طويل لا يخبو توتره ولا تتجمد حركته الجمالية. ومنذ أن العمل استغرق مدة زمنية طويلة فقد يكون التعبير الاقرب الى الواقع هنا عوضاً عن الحديث عن نفس شعري طويل. وهو انه تميز بقدرة فائقة على التفاعل وجدانياً مع آلام الفلسطينيين ومآسيه ومشكلاته اليومية ومشاعره المختلفة كإنسان. فصار ذلك وقوداً يشعل التجارب الشعورية لدى الشاعر باستمرار فكانت هذه التجارب يلتحم بعضها ببعض فلا يعتريها انقطاع وتبدو كأنها شعلة واحدة امتدت واستطالت.

¹ . 311 page, 4, issue, vol. 37, Arab studies quarterly, Mourid Baraghouti: The blessing of exile, Salam Mir,

الباب الثالث

دراسة تحليلية انتقائية لأعمال محمود درويش ومريد

البرغوثي الأدبية

هذا الباب يحتوي على ثلاثة فصول وهي كما يلي:

- الفصل الأول : رأيت رام الله لمريد البرغوثي: دراسة تحليلية
- الفصل الثاني: دراسة تحليلية في نصي "يوميات الحزن العادي" و "في حضرة الغياب" لمحمود درويش
- الفصل الثالث: آراء الكتاب حول رأيت رام الله ويوميات الحزن العادي وفي حضرة الغياب

الباب الثالث

إن فلسطين هي ليست كيانا جغرافيا ومكانيا فقط بل إنما هي مصدر إلهام لكثير من الأدباء و الشعراء الفلسطينيين نتيجة المآسي والأحداث التاريخية التي هزت فلسطين والتي دفعت بالكثير من أبناء الشعب الفلسطيني إلى أن يحكيوا من أحداثهم روايات وقصائد وقصصا تأخذ الصبغة الوطنية كردة فعل ثقافية تجاه هذه الأحداث التي هددت فلسطين وتهدها في حاضرها ومستقبلها.

فالأدب الذي تطور في فلسطين تزامننا مع هذه الأحداث للمأسوية مر كما ذكرنا في الفصول السابقة بمحل أهمها المرحلة من بداية نهضة الأدب الفلسطيني حتى 1948م والمرحلة الثانية هي من 1948م إلى 1967م.

تأثر هذا الأدب بعدة من العوامل الاجتماعية والسياسية أهمها نكبة فلسطين عام 1948م الذي أسفر عن التهجير والتشريد القسري لعشرات الآلاف من الشعب الفلسطيني والاستيلاء على بيوتهم. الأمر الذي كان له الأثر الواضح على أدباء فلسطين والذي تجسد في كتابات العديد منهم التي صورت بشكل لافت هذه المأساة التي أدت بهم إلى تشكيل وعي جديد لكي يعيدوا النظر في الأشياء و أن لا يتعاملوا معها كمسلمات ومن هنا نجد أن الطابع الأساسي الذي غلب على الأدب الفلسطيني هو أدب المقاومة الذي ظهر نتيجة معاناة الشعب الفلسطيني من الاحتلال والمنفى والاعتقال ومروارة العيش في المنافي المختلفة فالذي ولد في الشتات ولد وخيمته في العراء. فعبر الأدباء عن كل هذا عن إيمان وسخ بأشكال مختلفة من أدب العودة وأدب السجون وأدب المنفى وكلها تعبر عن شجون الشعب الفلسطيني وشجون أوطانهم.

فما يميز أدب العودة يتمثل في اختلاطه ومتوجه بالألم والأمل في أن الفلسطيني سيظل يعاني من محاولة موازنة مآسيه حتى يتحقق له الحلم في العودة إلى وطنه الأصلي وهكذا

يتميز هذا الأدب ارتباطه المكاني والتصوير في الذاكرة بسبب تاريخ فلسطين الذي هو ملئ بالأحداث التراجيدية المتتالية.

وهكذا ما يميز أدب السجون هو أنه أدب إنساني ولد في غياهب الزنازين وخلف القضبان الحديدية وخرج من رحم القهر الذاتي المعبر عن مرارة أنواع التعذيب وألوان التنكيل ووحشة الأسير واشتياقة لأنوار الحرية. وأدب السجون يخلق في الأسير ولادة جديدة نتيجة معرفته لقيمة الأشياء بمزيد من الوعي ومن هنا لا يكون السجن إبادة للهوية بل العكس يكون لإنتاج إبداع المقاومة.

أما أدب المنفى فكما ذكرنا أن الكثير من الأدباء المنفيين استلهموا من تشريدهم أدبا وشعرا ورواية ومذكرة وسيرة ذاتية للتعبير عن حالة الضياع والقلق فالمنفى لا يستطيع الانصهار في بوتقة مجتمعه الجديد. ومن هنا يعاني من سوء التكيف وضياع الأمل فيظل ينزف نتيجة منغاه من وطنه الأم. ما يميز هذا الأدب هو الحنين إلى الوطن وذكر مآثر الوطن والبكاء على فراق الأعزة وهكذا يميزه زيادة التحامه بالوطن. يتمثل هذا الأدب في كتابات العديد من الكتاب الفلسطينيين من غسان كنفاني ومحمود درويش ومريد البرغوثي وراجا شحادة إميل حبيبي وجبرا إبراهيم جبرا وسحر خليفة وغيرهم فلم يبق هؤلاء الأدباء إلا وأثر في كتاباتهم ما عانوه من تجارب المنفى والاعتراب. أولى هؤلاء الأدباء العناية الشديدة بأوضاع الشعب الفلسطيني وأثاروها في كتاباتهم إثر الاحتلال الإسرائيلي المتمثل في التراجيديا الفلسطينية التي نتجت عن ظهور عشرات من الأعمال الأدبية باللغة العربية خاصة واللغات العالمية الأخرى عامة التي أبرزت هموم المنفى وآلام الغربة وأعطتنا إطلالة على أوضاع البلاد السياسية والمعيشية والاجتماعية وأهم من كل ذلك الإنسانية بأقلام هؤلاء الأدباء الذين تذوقوا مرارة النفي بأنفسهم ومنهم مريد البرغوثي الذي كتب "رأيت رام الله" و "ولدت هناك، ولدت هنا" ومحمود درويش الذي كتب "يوميات

الحزن العادي" و "في حضرة الغياب" وأبرز كل منهما تجربة منفاهما في هذه الكتابات بحساسية شديدة والتي نعالجها في الفصول الآتية بالدراسة والتحليل إذ هي تعطينا تبصرا عميقا في هذا الأدب.

الفصل الأول

رأيت رام الله لمريد البرغوثي: دراسة تحليلية

نبذة عن الكتاب:

رأيت رام الله سيرة ذاتية روائية للكاتب الفلسطيني مريد البرغوثي. حازت على جائزة نجيب محفوظ للإبداع الأدبي عام 1997. يحكى هذا الكتاب عودة صاحب الكتاب مريد البرغوثي إلى مسقط رأسه دير غسانة في رام الله ووطنه فلسطين بعد أكثر من ثلاثين سنة قضاها في المنافي المختلفة نتيجة الأحداث المأساوية لحرب 1967 والتي أسفرت عن منعه من العودة إلى الأراضي الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل. وكان مريد آنذاك طالبا في جامعة القاهرة وتخرج في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها لها.

يقول مريد بهذا الصدد:

"نجحت في الحصول على شهادة تخرجي و فشلت في العثور على حائط أعلق عليه شهادتي"¹.

لم يتمكن من العودة إلى مدينة رام الله إلا بعد ثلاثين عاما من التنقل بين المنافي العربية والأوروبية المختلفة وحتى هذه العودة له كانت عودة مؤقتة وهذه هي التجربة التي صاغها في هذا الكتاب السير الذاتي له.

طبع هذا الكتاب أربع طبعات بالعربية منذ صدوره لأول مرة في سنة 1997. وبالإضافة إلى ذلك طبع مرتين بالإنجليزية التي نقلت إليها الكاتبة أهداف سويف وقدم لها الناقد الكبير إدوارد سعيد. وهذا أمر أضفى على هذا الكتاب مزيدا من الأهمية وتلقى قبولا واسعا في الأوساط الأدبية العربية والعالمية كما تم ترجمته إلى الإسبانية والإيطالية والهولندية والفرنسية وغيرها من اللغات العالمية.

¹ . مريد البرغوثي، رأيت رام الله ، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، ص 7.

يتكون هذا الكتاب من تسعة فصول "الجسر، هنا رام الله، دير غسانة، الساحة، الإقامة في الوقت، عموبابا، غربات، لم الشمل ويوم القيامة اليومي.

دراسة تحليلية للكتاب:

يقدم لنا الكتاب في حقيقة الأمر رحلة الأديب مريد البرغوثي إلى رام الله بعدما منع من الدخول إليها منذ خرج منها لتلقى دراساته في جامعة القاهرة ووقعت حرب 1967 أثناء سنوات تعليمه والتي كما بيناه قبل أدت إلى ذهاب مساحات واسعة من الأراضي الفلسطينية في قبضة الاحتلال. فهذه كانت رحلة للم الشمل. لم تكن عودة حقيقية إلى الوطن الذي كان قد أصبح له فكرة ورمزا. بل كانت رحلة للتعرف على الشتات في الوطن وعلى ما فعله الغربية فيه. يقدم لنا الكتاب أيضا رحلة الفلسطيني للتشبث بوطنه وهو في المنفى ولكي يؤسس حق ابنه في هذا الوطن.

وبعد دراسة هذه الخلفية التاريخية لهذا الكتاب الذي يعد من كبرى المحاولات الفلسطينية التي تبرز تجربة النفي والغربة بأقلام الفلسطينيين، لا بد وأن ندرس هذه الرحلة من أولها حتى نتعرف على البنيات السردية التي استطاعت بها الشاعرية أن تتقل هذه الرحلة إلى استعارة فنية لرحلة الفلسطيني في الدياسبورا منذ أن فقد صاحبه وطنه على مرحلتين. لأن السرد النصي وإن تمحور حول رحلة كاتبه إلى الحد الذي عده كثير من النقاد نصا سيرذاتيا ولكنه يقدم لنا أن مصير هذا الكاتب مشتبك بمصير وطنه الفلسطيني وبمصائر العديد من أبناء شعبه من أخيه الأكبر منيف البرغوثي الذي فرضت عليه التجربة أن يكون وهو في عنفوان شبابه أبا رؤوفا لا لأسرته فقط بل لكثير من الفلسطينيين أيضا إلى الرسام الفلسطيني الشهيد ناجي العلي الذي شيع جنازته في لندن مع ماكان في هذا التشييع من العصيان الجريء الذي لا يخاف ولا يهاب على المؤسسة الفلسطينية التي لا يزال الكثيرون يجدونها وريطة في مصرع هذا الرسام العبقري.

حينما نبدأ هذه الرحلة نجد أن الجسر هو عنوان الفصل الأول لهذه السيرة الذاتية. "فيروز تسمية جسر العودة. الأردنيون جسر الملك حسين. السلطة الفلسطينية تسميه معبر الكرامة. عامة الناس وسائقوا الباصات والتكسي يسمونه جسر النبي. أمي وقبلها جدتي وأبي وإمراة عمي أم طلال يسمونه ببساطة الجسر"¹.

فهذا هو الجسر الذي يبدأ منه مريد البرغوثي عملية تصوير تجربة عودته من خلال المباشرة الحسية والنفسية للسردية الذاتية مع قطرة من العرق تنحدر من جبينه إلى العدسة من طريق إطار نظارته في طقس شديد الحرارة ويدفعه وسرده الذاتي إذن صوته الملتهب من خلال المناظر المتفحمة للاحتلال نحو بيته الأول ويتخلل الحاضر الماضي في السرد كله إذ ينعكس مريد على سنواته في المنفي باستمرار وبذلك يبرز استمرار المنفى من خلال تمزقات التاريخ².

يجسد مريد هذا الشتات بقوله

"حيث كل شيء مؤقت إلا أن تتضح الأمور"³.

والأمور لم تتضح حتى بعد ثلاثين سنة. في نكبة 1948 لجأ اللاجئون إلى البلدان المجاورة كترتيب مؤقت. تركوا طبيعتهم على النار آملين العودة بعد ساعات! انتشروا في الخيام ومخيمات الزنك والصفوح والقش مؤقتا. حمل الفدائيون السلاح وحاربوا من عمان مؤقتا ثم من بيروت مؤقتا. وصنعنا برامج مرحلية للتحرير مؤقتا. وقالوا لنا انهم قبلوا اتفاقية أوسلو مؤقتا. إلخ إلخ. قال كل منا لنفسه ولغيره، "إلا أن تتضح الأمور".

¹ . مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 4، ص 15.

² . Journal of Postcolonial Writing, "Mourid Barghouti's multiple displacements", by Karim Mattar at <http://www.tandfonline.com/loi/rjpw20>, page 106.

³ . مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 4، ص 32.

يصف هذا النص كيف أن الشعب الفلسطيني يعيش ظروفًا استثنائية منذ النكبة ثم النكسة ويقبل بالحلول المؤقتة منتظرًا الحل الدائم ولكنه لا يزال على هذه الحالة التعيسة في ظل اتفاقية أوسلو وما بعدها ويمثل سخرية مفارقة إذ إن المراوغة والتسويق هما اللذان يتحكمان في أمر اللاجئين والنازحين والمنفيين وعودتهم إلى وطنهم.

وتجري غربة مريد المرة عن أرضه القريبة والنائية معا في مشهدين: الأول حينما التأمّت الأسرة في إحدى فنادق عمان عام 1968 والآخر حينما كان يشارك مريد في أحد مؤتمرات اتحاد الأدباء العرب في دمشق وأخذ المضيفون لزيارة مدينة القنيطرة حيث شاهد التدمير الرهيب الذي تعرضت له المدينة على أيدي الإسرائيليين. يقول البرغوثي:

"مددت يدي من فوق السلك، وأمسكت بالأفرع العلوية من إحدى الشجيرات البرية في الجانب المحتل من الجولان، أخذت أهر الشجيرة المضمومة في يدي وقلت للدكتور حسين مرورة وكان يقف بجواري مباشرة. هذه هي الأرض المحتلة يا أبو نزار، إنني أستطيع أن أمسكها باليد! عندما تسمع في الإذاعات وتقرأ في الجرائد و المجلات والكتب والخطب كلمة الأرض المحتلة سنة بعد سنة ومهرجانا بعد مؤتمر قمة بعد مؤتمر قمة تحسبها وهما في آخر الدنيا! تظن أن لا سبيل للوصول إليها بأي شكل من الأشكال. هل ترى كم هي قريبة ملموسة موجودة بحق! إنني أستطيع إمساكها بيدي كالمنديل"¹.

فالأرض المحتلة هي واقع مرير يبلور "الإهانة المتجسدة في انتزاعها من الفلسطينيين. الإهانة تنغص حياة المهانين. نشيدنا ليس للقداسة السابقة بل بجدارتنا الراهنة. فاستمرار الاحتلال يشكل تكديبا يوميا لهذه الجدارة"².

¹ . المصدر السابق ، ص 10.

² . المصدر السابق ، ص 11.

يجسد هذا النص فقدان الجدارة وتجلياته التي تتغلغل في نسيج الحياة اليومية فتجعل الجميع يشعرون بضخامة الهوان وبضياهم للاستحقاق بشكل يعفن الروح ويسري في الدماء فتبلي الجميع بشلل جمعي لا يدعمهم أن يموتوا ولا أن يحيوا.

وهكذا يسترجع مريد بذاكراته أعضائه وبعض أصدقاءه الذين ماتوا أو استشهدوا في داخل الوطن كجدته الشاعرة وفي خارج البلاد في المنفى مثل أبيه وأخيه منيف وغان كنفاني وناجي العلي ووديع الذين بدأت وجوههم تطوف حوله حينما ولج أرض الوطن والذين لم يتح لهم القدر العودة إلى وطنهم كما هو يعود وفي هذا الاسترجاع إشارة إلى آلاف المنفيين واللاجئين والشهداء من أبناء وطنه الذين لم تتيسر لهم العودة كما نجد صورة عن واقع الفلسطينيين المشردين عن وطنهم في المنافي ولا يستطيعون اللقاء إلا مرة واحدة في سنة حينما يتذكر صور اجتماع شمل عائلته الموزعة بين الوطن والمنفى في فندق الكارافان من مدينة عمان.

فهذه التقنية تقنية الاسترجاع التي يرسم لنا مريد بها المنفى وما يجلب من عذابات كما في صيف عام 1968 بعد اتفاق الكاتب مع أهله المنتشرين في الوطن والمنفى على الاجتماع في عمان. يقول البرغوثي:

"كان ذلك أول لقاء بأبي وأبي واخوتي منذ فرقتنا الحرب. كنا ننظر إلى بعضنا كأن الواحد منا يكتشف وجود الآخر لأول مرة في نفس المكان. كانت نستعيد في كل يوم أمومة أمنا وأبوة أبينا وأخوة الإخوة وبنوة الأبناء. الغريب أن أحدا منا لم يفصح عن تلك المشاعر باللغة المنطوقة. كان فرحنا بوجودنا معا في هذا الفندق معلقا في الهواء المحيط

بنا. نشعر به ولا نريد أن نفضحه. كأنه سر من الأسرار. وكان من المطلوب منا جميعاً أن نكتبه"¹.

يصف هذا النص حالة كل الفلسطينيين المشردين عن وطنهم في زمن الاجتماع ولم الشمل المؤقت كما يجسد مفارقة ساخرة من الواقع المر الذين يعيشه الفلسطينيون المنفيون عن وطنهم. يقول مرید:

"في الكارافان جددت التعرف على إخوتي وعلى أمي وأبي. لقد جدت على الجميع ظروف استثنائية لا أعرفها"².

والفندق بعد ذاته مكان للقاء العابر المؤقت ويوشك على الانتهاء. ثم يقول مرید:
"منذ الليلة الأولى تحول اللقاء إلى زعر من الانفصال الأكيد. بدأ التوتر يختلط بالبهجة"³.

يصف هذا النص خشيتهم ان تحين ساعة الفراق ويعود إلى التبدد والتشتت من جديد.
وهكذا فإن هذه النصوص تؤكد أن ضياع الجدارة والاستحقاق هو الذي يغذي هذا الركود ويحول الجسد العربي إلى جثة لا حراك فيها. فالعلم الإسرائيلي هو يرفرف على الأرض المحتلة والمستوطنات اليهودية شاخصة في المكان وهي تؤكد من جديد على بقاء الاحتلال واستمراره في الأرض الفلسطينية. يقول مرید وهو مستغرق في تأملاته بعد مغادرته الجسر في طريقه إلى رام الله في موجودات المكان الفلسطيني:

"السيارة تواصل طريقها وأنا أوصل النظر من نافذتها على يميني وعلى يسار السائق ما هذا العلم الإسرائيلي؟ ألم ندخل مناطقنا منذ فترة؟ هذه هي المستوطنات إذا! أن يتحدث

¹ . المصدر السابق، ص 31.

² . المصدر السابق، ص 32.

³ . المصدر السابق، ص 32.

المتحدثون عن المستوطنات شيئاً وأن تراها بعينيك شيئاً آخر. كل الإحصائيات سخيقة بلا معنى. الندوات والخطب والإقتراحات والاستنكارات والذرائع وخرائط التفاوض وحجج المفاوضات وكل ماسمعناه وقرأناه عن مستوطنات لا يساوي شيئاً أمام مشاهدتها بعينيك. أبنية متدربة من الحجر الأبيض متلاحقة متكاتفة. تصطف خلف بعضها في سطور منسقة، راسخة في أماكنها. بعضها عمائر وبعضها بيوت يغطي سقوفها القرميد. هذا هو البادي للعين الناظرة من بعيد"¹.

يصف هذا النص السخرية المفارقة التي تشكلت لدى الكاتب عبر المعاينة للواقع المختلف للإجراءات الإستيطانية على الأرض على هذا المستوى من الكثافة والانتشار ويبد أن معنى المنفى المتشكل في مخيلة الكاتب حمل هنا دلالات غير المعنى المألوف [] وهي البعد عن الوطن فمثلاً نجد أن تغيير معالم الوطن الفلسطيني عبر الاستيطان إنما يشكل نفيًا لحقيقتنا الأولى وأن رفع العلم الإسرائيلي على الأرض الفلسطينية إنما يجسد نفيًا لحقيقتها وإنكاراً لسيادة أهلها بل لهويتها الفلسطينية والكاتب يعود إلى وطننا [] ليشاهد هذا التزييف المتراءى أمامنا [] فكأننا [] عاد من منفى إلى منفى آخر جديد حيث إننا [] في الحقيقة لم يرجع إلى وطننا الذي عرفنا [] ويعرفنا [] فهو غريب والغربة لا تبرحنا [] وحتى بعد عودتنا [] إلى وطننا [] .

وهذا هو الهوان الذي يتجسد في الفصل الثاني من الكتاب "هنا رام الله" عندما يفتح نافذتنا [] في الصباح الأول في رام الله ويسأل:

"شوها البيوت الأنيفة يا أبو حازم؟ سألت وأنا أشير إلى "جبل الطويل" المطل على رام الله والبيرة". فجاء الجواب الذي صدمنا [] "مستوطنة"².

¹ . المصدر السابق، ص 36.

² . المصدر السابق ، ص 43.

يلخص هذا النص عمليات نهب واسعة للأراضي وإقامة مستوطنات لا شرعية لها للصهاينة الوافدين من طول الأرض واتساعها وبدلاً من أن يقف المجتمع الدولي في وجه هذه العمليات البشعة برعاية الدولة الإسرائيلية يتقلب علي من سلبت أراضيهم وتعرضوا للتشرد والطرْد في المنافي المختلفة. يقول البرغوثي:

"ملايين اللاجئين في مخيمات الشتات غير مسموح لهم بحمل وثائق سلطة الحكم الذاتي، غير مسموح لهم بالعودة، غير مسموح لهم بالانتخاب ولا الترشيح ولا إبداء الرأي ولا المشاركة"¹.

ثم يواصل مريد ويعبر عن إحباطه في تلك الحكومات التي تدعي بإعطاء الحقوق للاجئين والمنفيين قائلاً:

"في لبنان هناك قرار حكومي الآن بمنع الفلسطينيين المقيمين في المخيمات من العمل في 87 مهنة! أي أن بوسعهم جمع القمامة وتلميع الأحذية فقط، ومن يسمح له بالسفر من لبنان لا يسمح له بالعودة إليه"².

هذا وعلى جانب آخر ينكل بهم الإسرائيليون صنوف التنكيل وفقاً لاتفاقات أو سلو المتخاذلة ويفرضون عليهم أنواعاً من الخطر الذي يجعل الفلسطينيين المقيمين أو العائدين مؤقتاً كأنهم منفيون داخل البلاد وهذا ما يعبر عنه مريد "يمنعون حتى القيادات من السفر إن أرادوا. تظن أنه بإمكانك الذهاب إلى القدس؟ أعلنوها منطقة مغلقة. يمنعون المصلين من الوصول إلى الحرم. حواجز وتفتيش وأجهزة كمبيوتر. لا يتوقفون عن توجيه رسالة واحدة لنا وبكل السبل: نحن الأسياد هنا"³.

¹ . المصدر السابق ، ص 167.

² . المصدر السابق ، ص 167.

³ . المصدر السابق ، ص 169.

وهكذا يميظ الكتاب اللثام عن تناقضات ما بعد أوسلو وعن الأوضاع الفلسطينية البائسة التي تبعتها حيث بقيت السلطة الفلسطينية بلا سلطة و قبل أن تتوهم بأنها حققت انتصارا من الانتصارات جردها شارون من ورقة التوت. الأمر الذي كان الكتاب تتبأ به قبل:

"علمنا التاريخ درسين اثنين: أولهما أن تصوير الفواجع والخسارات بوصفها انتصارا هو أمر ممكن والدرس الثاني هو أن ذلك لا يدوم"¹. ومع ذلك فإنه عندما يقول الكاتب لجاره القديم أبي محمد "كان مجيئ غلطة اذن" يرد عليه الفلسطيني البسيط قائلا:

"بالعكس، كل من يستطيع أن يرجع وأن يقيم فليرجع على الفور. يعني نتركها للفلاشا واليهود الروس وزعران بروكلين؟ هل نتركها للمستوطنين؟ ليعد من يستطيع العودة من الخارج، بتصريح لم شمل. بوظيفة، بالجن الأزرق. ابنوا في قراكم إذا قدرتم، ابنوا مستوطنات فلسطينية في فلسطين يا أخي! قال غلطة قال! يا عمي تعالوا"².

وهذه هي البداهة الصادقة البسيطة التي جعلت المرأة الفلسطينية أن تصرخ في وجه جنود الاحتلال حينما ترى شابا مقبوضا عليه منهم وتقول: ابني ابني! اتركوا ابني وقد "صرخ الجندي في وجهها وهو يجرجر الشاب روخي كذابة. كم أم لولد واحد؟ مئة أم لولد واحد! امشي من هون بالله. صرخت في وجهه. أيوه أحنأ هيك. الولد عندنا له مئة أم مش مثل أولادكم. كل ولد له مئة أب. ظاهرة المرأة الفلسطينية في الانتفاضة تستحق التمجيد لكن قصتها الكاملة لم تكتب بعد"³.

وهكذا فإن ثيمات المنفي والغربة مبعثرة في كل الكتاب سواء حينما كانت أسئلة محيرة نتيجة اتفاقية أوسلو وتداعياتها تتردد في ذهنه. الأسئلة التي كانت مرتبطة بتحديد هوية المكان الذي بات محل تفاهم بين طرفين كما عبر عنها الكاتب بقوله:

¹ . المصدر السابق، ص 145.

² . المصدر السابق، ص 169.

³ . المصدر السابق، ص 142.

"الآن أمر من غربتي إلى.. وطنهم؟ وطني؟ الضفة وغزة؟ الأراضي المحتلة؟ المناطق؟ يهود أو السامرة؟ الحكم الذاتي! إسرائيل؟ فلسطين؟ هل في العالم كله بلد واحد يحار الناس في تسميته هكذا؟ في المرة السابقة كنت واضحا والأمور كانت واضحة. الآن أنا غامض ملتبس والأمور كلها غامضة ملتبسة"¹.

وسواء حينما يقول الكاتب:

"هذا الجندي ذو القبعة ليس غامضا على الإطلاق، على الأقل بندقية شديدة اللمعان. بندقيته هي تاريخي الشخصي، هي تاريخ غربتي. بندقيته هي التي أخذت منا أرض القصيدة وتركت لنا قصيدة الأرض. في قبضته تراب وفي قبضتنا سراب"².

يوضح هذا النص أن تاريخ الاحتلال هو قائم في الأصل على تغييب تاريخ فلسطين ومجتمعهم البشري يقوم على نفي المجتمع الفلسطيني وهم يقفون على أرض يسمونها أرضا فقط حيث كانت بالنسبة للفلسطينيين أرض القصيدة قبل أن أصبحت قصيدة الأرض التي يتغنون بها ولا يستطيعون العودة إليها.

وسواء حينما يقول:

"يكفي أن يواجه المرء تجربة الاقتلاع الأولى حتى يصبح مقتلعا من هنا إلى الأبدية. الأمر يشبه أن تزل قدمه عن درجة واحدة من السلم العالي حتى يكمل النزول إلى منتهاه. الأمر أيضا يشبه أن ينكسر في يد السائق مقود السيارة. كل سيرها بعد ذلك يصبح ارتجالا وعلى غير هدى"³.

¹ . المصدر السابق، ص 19.

² . المصدر السابق، ص 19.

³ . المصدر السابق، ص 157.

هنا يوضح أن تجربة العودة المؤقتة يتوسطه تماما منفاه الأبدى. ومن هنا يستوجب مرارا ذكرياته حينما يواجه ألوان ورائحة وأصوات فلسطين وأيضا ما إذا كان لا يزال يستطيع أو للأبد الانتماء إلى مكان فقد ذكرياته عنه بطريقة مماثلة وهذا ما يتجسد في النص الذي يقول فيه:

"كيف غنيت لبلادي وأنا لأعرفها. هل أستحق الشكر أم اللوم على أغاني"¹.

هذه الأسئلة والشكوك المشروعة هي التي تعطي وقفة لأي شعور بالعودة إلى الوطن وهذا ما أدى بالكاتب إلى أن "الغربة لا تكون واحدة بل تكون غربات"². حيث يغترب المرء في أماكنه وعن أماكنه في نفس الوقت.

وهكذا يستدعى الحديث في المنفى الحديث عن الوطن بالضرورة لأن الوطن (المكان) هو بالنسبة للفلسطيني هو عنوان وجوده وهويته ومستقبله الذي لا بديل له عنه ولا يعادله أي مكان آخر في العالم سواه ومن هنا نرى أن وصف الأمكنة في هذه السردية السير الذاتية الروائية لمريد جاء معبرا عن صورتها الأولى لمقاربتها مع صورتها الحالية في زمن الاحتلال ليجرز التغيير الهائل فيها عبر ذاكرة السارد كما جاء وصف نباتات المكان الفلسطيني في النص برمزياتها العالية وأهمها شجرة الزيتون وكيف استهدفها المحتل كما استهدف أهلها بالقتل من الجذور علما بأنها غدت عنوان كرامتهم ورمز وجودهم على أرض وطنهم. يقول مريد:

"على مرمى العصر أشجار زيتون ضخمة مقتلعة من قراميتها، ملقاة كجثث مهانة في العراء. أقول هذه الأشجار قتلى وهذه البرية قبرها الجماعي المفتوح. وراء كل شجرة زيتون

¹ . المصدر السابق ، ص 73.

² . المصدر السابق ، ص 157.

تقتلعها الجرافات الإسرائيلية. الزيتون في فلسطين ليس مجرد ملكية زراعية. انه كرامة الناس¹.

وعلاقة الكاتب بالمكان علاقة قلقة ومن هنا وصف الكاتب علاقة الفلسطيني المنفى والغريب عن وطنه بالمكان علاقة هشة فقدت مغزاها وشعوره به مفقود. يقول مريد:

"لكثرة الأماكن التي رمتنا إليها ظروف الشتات واضطرارنا المتكرر لمغادرتها. فقدت أماكننا ملموسيتها ومغزاها. كأن الغريب يفضل العلاقة الهشة ويضطرب من متانتها. المشرد لا يتشبث. يخاف أن يتشبث. لأنه لا يستطيع. المكسور الإرادة يعيش في إيقاعه الداخلي الخاص"².

ومن هنا يغمر الكاتب الإحساس بأنه لا مكان لشخص مثله فهو غريب ومغترب لأنه يعلم أنه سيغادر المكان الذي حل فيه بعد أن نفي عن مكانه الأول. الواقع المرير الذي عمقته اتفاقية أوسلو في نفوس الغرباء مثله، إذ تحول هذا الموقف إلى ملهامة ومأساة في آن واحد. يقول مريد:

"لا تقبل الحياة منا أن نعتبر الإقتلاعات المتكررة مأساة. لأن فيها جانبا يذكر بالمسخرة. وهي لا تقبل منا أن ن تعود عليها كنكتة متكررة. لأن فيها جانبا مأساويا. إنها فقط تعلمنا الرضى بالمصير الوحيد المقترح علينا. تروضنا. تعلمنا التعود، كما يتعود راكب الأرجوحة على حركتها في اتجاهين متعاكسين. أرجوحة الحياة لا تحمل راكبها إلى أبعد من طرفها. المأساة والمسخرة"³.

¹ . مريد البرغوثي، ولدت هناك ولدت هنا، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط 2، 2011، ص 21.

² . مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، ص 106.

³ . نفس المصدر، ص 106.

فخلاصة القول إن "رأيت رام الله" هي كتاب الثلاثين عاما من المنفى وهي كتابة رحلة عمر كامل خارج المكان وكتابة الرحلة إلى المكان من داخل المكان بعد أوصلو أي بعد التمكن من رؤيته مرة ثانية. والكتاب رائعة من روائع أدب المنفى وبألفاظ الكاتب كريم متار:

"هذا الكتاب مع تحولاته المستمرة في المشاهد من رام الله إلى القاهرة إلى بودابست إلى بيروت إلى عمان إلى لندن وتقلصاته وتوسعاته الزمنية وتداخله في الماضي والحاضر، الذاكرة والتجربة المعاشة وتحولاته الأسلوبية والنغمية السريعة ومقاومته الكاملة للسرد المتواصل يتخذ مظهر المنفى نفسه ويتبني شكله"¹.

أسلوب الكاتب:

اعتمد الكاتب في "رأيت رام الله" أسلوب السيرة الروائية المتراسل في السرد مع أنواع أخرى. وظف جملة من التقنيات السردية في نصه ومن أهمها السرد والحكاية والوصف (الوقفة-المشهد) والاسترجاع والتذكر والخلاصة والاستباق وتقنية المتفاعلات النصية. والنص يتألف من سلسلة حكايات متشابكة في إطار سردي عام تداخلت فيه الأزمنة والأمكنة والأحداث ويقوم على مسارين روائيين متوازيين. أولها "الرواية مع" وهي سردي أفقي متطور إستعرض الكاتب فيه تجاربه الواقعية التي مر بها في رحلته وقراءته للتغيرات على الأرض الفلسطينية في طريقه من الجسر إلى رام الله ودير غسانة ومدن أخرى من فلسطين.

¹ Journal of Postcolonial Writing, "Mourid Barghouti's multiple displacements", by Karim Mattar at .

<http://www.tandfonline.com/loi/rjpw20>, page 108.

وثانيهما هو الرواية من الخلف وهو السرد الاسترجاعي عن طريق استخدام أسلوب الاسترجاع وهي تقنية سينمائية ساعدت الكاتب على تشكيل الأنساق الدلالية المطلوبة لتبيين معاني الخطاب الروائي.

لغة الكتاب شاعرية وغنائية ومتميزة بروعة اللغة وسهولة العبارة ومنسوجة في حبكة رائعة. فلا يحرض الكاتب القارئ على فعل شئ وهو يعرض تجربته على مدى ثلاثين عاما وهذا هو السبب وراء عدم لجوئه لاستخدام الكلمات الحادة والقاسية ولا يطرح حولا سياسية أو فلسطينية لحل قضيته بل يعرض ببساطة مشاعره بالصدق والذكاء ويتعمد إدخال اللهجة الفلسطينية في مواضع ليشعرك بالألفة مع شخصيات الكتاب.

الفصل الثاني

دراسة تحليلية في نصي "يوميات الحزن العادي" و
"في حضرة الغياب" لمحمود درويش

نبذة عن يوميات الحزن العادي:

يوميات الحزن العادي وهي أول ثلاثة أعمال نثرية رئيسية ممتدة على سيرة الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش الذاتية والتي طبعت لأول مرة عام 1973. هي عمل من الألم والضياع المكثف المحزن وهذه المجموعة من المقالات التي تتضمن أصداء سيرته الذاتية هي أكثر من مجرد مذكرات بسيطة.

كتب فيها درويش عن معاناة الناس في فلسطين 1948 وفي فلسطين 1967، كانت صور المعاناة لم تنزل متوقدة في ذهنه، إذ كان حديث عهد بالخروج منه وكان يعيش سنواته الأولى في المنفى الذي أجبرته إليه معاناته الشخصية من قامعي أحلامه الذين هدموا بيته وأقاموا على أنقاضه مستوطنة كما وصف درويش فيها ما آلت إليه حالة الشعب الفلسطيني في الوطن وفي المنافي. ذكر فيها تاريخ عائلته وتأمل في معنى الوطن وركز على الرعب الذي يطارده العرب في الأراضي المحتلة وتحدث عن الإقامة الجبرية ومواجهاته مع المفتشين الإسرائيليين وعن أوقاته في السجن. تحدث فيها عن حياة اللاجئين والمنفيين كما وضف درويش أن فلسطين قضيته وهو يساوي نفسه مع بلده والضمان التي يستخدمها- أنا وأنت- يمكن أن تمثل تربيته الشخصية أو تلك من شعبه وهنا يتم دمج الشاعرية مع السياسية. في يوميات الحزن العادي كما هو الحال في جميع أعمال درويش نحن نجد أنفسنا في وسط مواجهة بين الكتابة والتاريخ حيث يعطي الكتابة الوطن قالبه ومظهره.

يتكون الكتاب من تسعة فصول، القمر لم يسقط في البئر، الوطن بين الذاكرة والحقبة، يوميات الحزن العادي، من يقتل خمسين عربيا يخسر قرشا، الفرح عند ما يخون، تقاسيم على سورة القدس، صمت من أجل غزة، ذاهب إلى العالم غريب عن العالم وذاهب إلى الجملة العربية في الخامس عشر من أيار.

يعالج درويش هذا الكتاب كشاعر مع قوة غنائية تمهد لصورة قوية تلو الأخرى والقطعة الإفتاحية "القمر لم يسقط في البئر" تبدأ كما يبدو كحوار بين الأب والإبن أو الذات الدرويشي الأصغر والأكبر. يقول درويش:

"ماذا تفعل عن قلبي الذي وقع في تلك الليلة.

وهل تجده هنا؟

أين أجده إذن! أنحني على الأرض وألتقطه حبات حبات كما تجمع الفلاحات، في تشرين حبات الزيتون"¹.

وفي النهاية ندرك أن هذا هو ذات الشاعر الأصغر الذي يستوجب ذاته الأكبر. هذا الأخير الذي يتحدث عن عائلته التي دفعت إلى المنفى في عام 1948 لا يلبث إلا ويعود ويجدها منفية في داخل أراضيها نفسها وهنا يلتقي الفضول الطفولي الحزن المتولد من الخبرة والخسارة والحكمة واليأس.

يتميز الإهتمام بجودة وصياغة الجمل النثر الشعري لدرويش. ودرويش يوظف بالترار وبطريقة فعالة حوارا دراميا في عدد من مقالاته وتكون قطعة العنوان لحد كبير متألفة من سلسلة من المحادثات عادة التهكمية في النغمة والتي تلقي الضوء على الديناميات السياسية للتمييز العنصري والاضطهاد وهكذا يكون التأثير فعالا بشكل لافت للنظر مثلما يقول درويش:

"من أين أخي؟

من غزة

¹ . درويش، محمود، يوميات الحزن العادي، ط 5، دار العودة، بيروت، 1988، ص 1.

ماذا فعلت؟

ألقيت قبلة على سيارة الغزاة، فانفجرت بي

و...

ألقوا على القبض، واتهموني بالانتحار

اعترفت طبعاً؟

ليس تماماً، قلت لهم إن محاولة الانتحار لم تنجح. ولذلك حرروني من الرحمة

وحكموا علي بالسجن المؤبد.

ولكنك كنت تنوي القتل لا الانتحار؟

يبدو أنك لا تعرف غزة. فالمسافة هناك شئني وهمي

لا أفهمك جيداً.

يبدو أنك لا تعرف غزة. فمن أين أخي؟

من حيفا.

ماذا فعلت؟

ألقيت قصيدة على سيارة الغزاة، فانفجرت بهم.

وألقوا علي القبض واتهموني بالقتل الجماعي"¹ 2

¹ . نفس المصدر، ص 38.

إن الروح والحساسية الشعرية التي يستكشف بها درويش مصير فلسطين وما يعنيه العيش كما يفعل كمنفي في إسرائيل تدفع هذه المذكرة أقرب إلى القلب وتولد طاقة عاطفية أكثر مما سيسمح به أسلوب مقال السرد الذاتي التقليدي ومن هنا تصبح تجربة القراءة أكثر تكثيفا كلما يمعن القارئ النظر في المقالات وبطبيعة الحال فإن هذا العمل هو بشكل محزن ذو صلة اليوم كما كان عندما نشر لأول مرة عام 1973 إذ إنه لم يتحدث فقط عن جذور التوترات المستمرة بين إسرائيل وفلسطين بل تطرق إلى المخاوف الأوسع التي يواجهها اللاجئون العرب الذين أجبروا على الخروج من الأوطان المقسمة والمضطربة والتشرد في جميع أنحاء الشرق الأوسط كما تحدث عن أولئك الذين يجروون على المجاهرة بالكلام علما بأنهم يخاطرون أنفسهم بالاحتجاز أو بالأسوء من ذلك في كثير من الولايات.

من خلال إضفاء اللون العالمي على التجربة الفردية وتجسيد المأساة والخسارة التاريخية، يقف محمود درويش شاهدا على مصير شعبه تحت الاحتلال وفي المنافي ويوميات الحزن العادي تعكس هذا الحزن الذي يمكن أن نطلق عليه أي شيء بل عاديا.

نبذة عن كتاب "في حضرة الغياب"

كتب محمود درويش هذه المقطوعة الموسيقية التأملية الرائعة في قمة إبداعه ولكن مع العلم الكامل بأن وفاته كانت وشيكة. مفكرا بأن هذا العمل قد يكون نهائيا استدعى كل عبقريته الشعرية لخلق عمل مشرق يتحدى التصنيف. في لغة مذهلة يحتل هذا الكتاب مساحة نادرة حيث تناضل الأضداد وتختلط ببعضها البعض وهو مزيج من الشعر والنثر والحياة والموت والوطن والمنفى وينظر الشاعر فيه وهو على عتبة الموت إلى الوراء ويفكر في وجوده المتشابك مع ذلك من شعبه ومن خلال هذه التأملات الغنائية في الحب

والشوق والوطن والتاريخ والصدقة والأسرة والمحادثة الجارية بين الحياة والموت يقدم الشاعر نفسه وقرائه وداعا مؤثرا.

يعكس هذا الكتاب وقائع دالة من سيرة محمود درويش في لغة مكثفة ولكن درويش لا يقوم فيه بنثر سيرته على الطريقة المألوفة. ومن هنا لا نجد هنا استطرادا في سرد الوقائع ولا انتسابا إلى الأسرة كما هي الحال في سرديات السيرة الذاتية ولا إشارة إلى العلاقة مع الأب أو الأم أو بقية أعضاء الأسرة إلا على نحو محدود بل اتخذ طريقا يخدم غرض الشاعر وهو الذهاب عميقا في مسألة الحياة والموت وفي موضوع الوطن بتمظهراته المختلفة بدءا من فترة الولادة حيث "لم يصدق أحد من الجالسين في ظل شجرة التوت انك ستحيا من فرط ما شرقت بحليب أمك واختنقت. نحىلا كنت كخاطرة عابرة"¹ ومرورا بالنزوح المؤقت إلى لبنان ثم تطرقا إلى أنواع المقاساة وألوان المعاناة التي تعرض لها محمود درويش وانتهاء بالعودة الناقصة إلى قطاع غزة بعد إبرام اتفاقية أوسلو وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية وما صاحب ذلك من سماح لدرويش بالدخول إلى حيفا لكي يجري حوارا مع الأديب إميل حبيبي الذي يموت في هذه الأثناء فيأتي درويش لتأبينه ومن هنا لزيارة امه ولزيارة قبر أبيه وللمرور عن كذب بالمكان الذي كانت قريته "البروة" المهدمة في حرب النكبة قائمة عليه.

ومن أهم الوقائع التي جرى البحث فيها في هذا الكتاب النزوح إلى لبنان، التسلل عبر الحدود والعودة إلى الوطن، الحياة في ظل سلطة الأخر، الاعتقال والإقامة الجبرية وما يتفرع منها، الخروج من حيفا، الإقامة في بيروت ومقاسات أيام الحصار والعودة الناقصة إلى غزة ورام الله وحيفا ما عدا الوقائع الأخرى.

¹ . درويش، محمود، في حضرة الغياب، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط 1، 2006، ص 11.

يختار درويش في حضرة الغياب كلمة نص ليحدد الجندر (genre) أو النوع الأدبي لكتابه هذا. اكتفى درويش بكلمة واحدة هي "نص" لتحديد الجنس الأدبي لهذا الكتاب ولم يتبناها بكلمة أخرى لأننا ربما يكون قد أراد أن يترك هذا لقارئيه. الأمر الذي جلاله بلض دارسيه يرون فيه شلرا أكثر من نثر والبلض الآخرين يرون فيه تزاوجا بين الشلر والنثر¹.

وبلاد هذه الإطالة السريعة سوف آتى على ذكر بلض تيمات المنفى التي يتضمنها هذان الكتابان.

كما قرأنا بصدد الحديث عن حياة درويش في الفصول السابقة أننا عاش سنوات عديدة في المنفى فلرف ملانى الغربية والوحدة ومن هنا نجده قد كتب عن هذه التجربة في قصائد عديدة، إذ عبر عنها بصدق وحرارة بالغين إذعاش هذه التجربة ابتداء في الوطن ومرورا بموسكو والقاهرة وبيروت وتونس وانتهاء بباريس. يقول درويش:

" فيك من عمر المنفى ما فيك من عمرك في الوطن²."

وبالرغم من السنوات اللديدة التي قضاها درويش في الغربية والمنفى إلا أننا بقي قوى الصلة بقضيتنا الفلسطينية كما أننا ظل شديد الالتصاق الروحي والارتباط المانوي بأرضنا بلاد انفصالها عنها جسديا وازداد تمسكا بهويتنا الوطنية الإنسانية وقد أتاح لنا المنفى أن يحمل قضيتنا إلى العالم بليدا عن الأسلوب المباشر الذي تبناه في شلاره الذي سبق خروجنا من فلسطين. يكتب عن المنفى:

¹ . عادل الأسطة، في حضرة الغياب: دراسة متوفرة على www.darwishfoundation.org

² . درويش، محمود، في حضرة الغياب، ص 141.

"فتصل المسافة بكفاءة المحترف الماهر، لا بهشاشة المشتاق الحائر فليس شعر المنفى ما يقول لك المنفى بل ما تقول أنت، ندا لند"¹.

نلاحظ أن درويش يتكلم هنا عن المنفى وكأنه ند له أو خصم لا يؤثر فيه بالمثل الذي يؤثر هو فيه.

وهكذا يذكر درويش في حضرة الغياب كثيرا من الرموز مثل العجر دائمي السفر الذين لا يمكثون في مكان واحد لإعطاءنا صورة عما يحمل المنفى من المعاناة لصاحبه. يقول درويش:

"في كل ولد غجرية، وفي كل غجرية سفر مرتحل. وفي كل سفر حكاية لا تروي إلا بعد اجتياز الذكرى سن الخجل من أصحابها. ألهذا حملت الفجر معك كلما افترق المكان عن زمانه وكلما تشرد المكان في سكانه الباحثين عنه فيما تبقي من روائح هي الدليل على حسية الروح"².

يكتب درويش هنا عن العجر كرمز اللاجئين الذين لا يستقرون في مكان فمن رحيل إلى رحيل ومن منفى إلى منفى ينتقلون ولا يقومون بكثير من الأعمال بسبب السفر فلو كان لهم أي وطن يعطي لهم الأمن لقاموا بتلك الأعمال باستقرار.

وهكذا تحدث درويش عن فكرة المنفى والنفي في يوميات الحزن العادي حينما يقول:

"لأن رحيلي لم يكن اختياريا. لم يكن سفرا. كان نفيا وطردا"³.

¹ . نفس المصدر، ص 92-93.

² . نفس المصدر، ص 50.

³ . درويش، محمود، يوميات الحزن العادي، ص 34-35.

ثم ذكر "أن الإسرائيليين ادعوا أن الفلسطينيين تخلوا عن أراضيهم وأنهم خيروهم بين الموت والنزوح ومارسوا ذلك بالسلاح. وكل ذلك خطة أعد لها مسبقاً"¹.

وعندما نراه يتعجب من أستاذ التاريخ الذي نفى أن يكون ما قامت به القوات الصهيونية طردا للفلسطينيين من أراضيهم ثم يتحدث عن اعتراف العدو نفسه بارتكاب المجازر بحق المواطنين الفلسطينيين وطردهم واحتلال أراضيهم².

وعندما نراه يتحدث عن الهجرة إلى لبنان قائلاً:

"لم نسكن مخيماً، مررنا في رميش، ثم بتنا ليلة في بنت جبيل التي ازدحمت بصراخ المنفيين وكانت حظيرة بشرية. كانت الليلة الثانية التي نبيتها خارج البيت. الليلة الأولى كانت في أحد مضارب البدو في الجليل حيث أكل عشرات من الضيوف بيضا مقليا من إناء واحد. وفي جزين أقمنا رأيت السواقي التي تسكن البيوت ورأيت الشلال"³.

وعندما نراه يتحدث عن المعاناة التي يلقاها في المنفى حيث الجوع والبرد والحنين إلى الوطن إذ يقول:

"وحين أشعر بالبرد في المنافي، كانت صحف الرأي العام العالمي تقيني من الأمطار والارتجاج. وحين كنت أشعر بالجوع، كانت فقرة من ثلاثة سطور في خطاب رئيس دولة متحضرة تشبعتني. وحين كنت أشعر بالحنين، كانت الأغاني الأجنبية، المنبثقة من راديو الجيران تجعل الرحيل تجربة جميلة. وهكذا يذهب العالم إلى غرفة النوم.. وينساني"⁴.

¹ . نفس المصدر، ص 41-42.

² . نفس المصدر، ص 56-57.

³ . نفس المصدر، ص 6.

⁴ . نفس المصدر، ص 172.

كما نراه يكتب عن ابتعاده عن فلسطين وعن نفي شعبه واغترابه موظفا لذلك رمز المسيح والصليب للدلالة على الشقاء والتضحية حيث يقول:

"وأعرف أن فلسطين -على الخارطة- بعيدة عني. وأعرف أنكم نسيتم اسمها وتستخدمون ترجمتها الجديدة. أعرف هذا كله- أيها السادة القضاة. لقد صارت فلسطين أجسادا تتحرك. تنتقل في شوارع العالم وتغني أغنية الموت لأن المسيح الجديد ترجل عن الصليب، امتشق عصا وخرج من فلسطين"¹.

وهكذا نرى أن محمود درويش وقف من المنفى نظرة أخرى طورها بعد إقامته في باريس حيث نضجت تجربته الشعرية وحوله إلى معنى إيجابي يفيد منه الإنسان المنفي يكتب درويش بهذا الصدد وهو في باريس:

"ليس المنفى سفرا، ذهابا وإيابا وليس إقامة في حنين. فقد يكون زيارة وانتظارا لما يفعل بك الزمن وخروجا من الذات إلى غيرها للتعارف والتآلف أو لعودة الذات إلى الصدفة. لكل منفى طبيعة ولكل منفي طبائع. في المنفى تدريب على التأمل في ما ليس لك وإعجاب بما ليس لك فالمنفى يهذب الجسد، يفتكك جمال الشكل ولو كان المعنى ناقصا فالكمال هو وعي النقصان"².

نلاحظ هنا بوضوح أن نظرتة إلى المنفى تغيرت بعد أن ألفه ورأى فيه فسحة للتأمل وإعادة النظر.

وبالرغم من هذا التغيير في نظرتة فإنه عاش سنوات طويلة تقارب تلك السنوات التي عاشها في الوطن ومن هنا كتب عن المنفى بشكل من القلق والتوتر وغموض الواقع والمستقبل فلا يدري إلى أين يعود وأين يذهب فالأمام غامض والوراء مظلم فقد نام على

¹ . المصدر السابق، ص 177.

² . درويش ، محمود، في حضرة الغياب، ص 89.

أسرة كثيرة ودق مسامير كثيرة على جدران مختلفة ونسي مطالع قصائد في أدراج متعددة لكثرة ما سافر أو رحل ولكثرة ما أصبح وطنه حقيبة يحملها من منفى إلى آخر¹.

فخلاصة أن المنفى بتجلياته المتعددة من داخلي وخارجي واختياري وإجباري انعكس في هذين النصين الذين جلبت منهما نماذج متعددة لإثبات ثيماته على سبيل المقال لا الحصر ويحلو لي أن أنهى كلامي في هذا الفصل بما جاء في الحوار الذي أجراه غسان زقطان مع محمود درويش بصدد المنفى وأبعاده المختلفة. يقول درويش:

"والمنفى متعدد المعاني والأبعاد وهناك منفى اختياري كمنفى جيمس جويس وغيره ولكن المنفى عند الفلسطينيين منفى المضطهدين والمحرومين من الوطن وللمنفى عندهم معنى واحد هو عكس الوطن وكل شئ في الوطن جنة بالمقارنة مع المنفى وهذا في حالتنا نحن"².

¹ . نفس المصدر، ص 141 و 89-90.

² . مجموعة من الكتاب، محمود درويش، المختلف الحقيقي، دراسات وشهادات، دار الشروق، عمان، ط 1، 1999.

الفصل الثالث

آراء الكتاب حول "رأيت رام الله" و"يوميات
الحزن العادي" و"في حضرة الغياب"

كما بينت سابقا أن أعمال محمود درويش و مرید البرغوثي و خاصة النثرية المتمثلة في رأيت رام الله و يوميات الحزن العادي و في حضرة الغياب هي تسلط الضوء على المأزق الحالي للوجود الفلسطيني وتبرز تجاربهما للمنفى المنعكسة في الطرد وانتزاع الملكية ومشاعر التشريد و التهجير والاعتراب الوجودي من ارضهما و شعبهما و القدرة على البقاء و المقاومة. تتداخل حياة كل من هذين الأديبين في فترات هادفة و أعمالهما تكمل بعضها البعض من خلال ما صورت و عكست من جوانب مختلفة من حياتهما في المنفى وكما هي ترصد ملاحظاتها وتأملاتها يستخدم كل من درويش و مرید الأدب لتبادل تجاربهما. فكما رأينا في أعمال درويش أنه دائما يحده الحنين و الغرائبية الى الوطن الذي ابتعد عنه بسبب المنفى وجدنا مرید يبلغنا عن شعوره العميق بالإحباط لعدم قدرته على تغيير الوضع ولكن نجد كلا منهما أنهما يضعان الحياة الفلسطينية وما آلت إليه في مركزية سرديتها إذ يوفر كل منهما في مواجهة حطام الحرب و الاحتلال العسكري ومن خلال تبادل تجاربهما الخاصة بهما منظورا أدبيا عميقا ومشاركا للوجود الفلسطيني و قد صور كل منهما هذه التجارب بكلمات هي مزيج من الشعر والنثر ومكتوبة بغنائية مكثفة. الأمر الذي جعل تأثيرها عالميا وحظيت بالقراءة و التحليل والنقد على نطاق واسع في كل العالمين العربي والغربي وفيما يلي نقدم بعض الآراء للكتاب و النقاد وانطباعاتهم تجاه هذه التجارب المتمثلة في رأيت رام الله لمرید البرغوثي و يوميات الحزن العادي وفي حضرة الغياب لمحمود درويش¹.

¹ Norbert Bugeja, Post colonia memoir in the Middle East: Rethinking the luminal in Mashriqi writing, p-39
And also Mahmoud Darwish: Exile's Poet, edited by Hala Khamis Nassar And Najat Rahman. p-293-294.

رأيت رام الله

• د- على الراعي

يقول د- على الراعي الناقد الأدبي المصري:

كتاب مرید " رأيت رام الله" يصدر عن روح فريدة حقا، فريدة فى النظرة السمحة التى ينظر بها إلى الناس و الأحداث. الكتاب ليس مجرد كتاب، إنه نوب قلب و عصارة حياة قضاهها الشاعر المرموق منتقلا بين المهاجر والمناظر والمناذب.

• أ.د. فريال جبوري غزول

تقول أ.د. فريال جبوري غزول، أستاذة الأدب العربي بالجامعة الأمريكية ببيروت:

عمل يحكي رحلة عذاب الفلسطيني ليحول هذه التجربة إلى عمل إنسان فذ. مرید البرغوثي يستدعى ذكرياته بحميمية لكن دون رومانسية و يستحضر الوطن بعاطفة مشبوية لكن دون مرارة.

• د. محمد الشحات

يقول د. محمد الشحات وهو كاتب و ناقد أدبي وأكاديمي مصري:

لن يعدم قارئ نص " رأيت رام الله" تصاعد السرد بالشعري فى مقاطع واضعة من حيث الشكل الطباعي أشبه بوقفات أو دقات شعرية تجمد الزمن السيال مستعينا أحيانا بمقاطع اقتسبها من دواوينه الشعرية السابقة وخالقا أحيانا أخرى مقاطع قد تثرى عالما من الراحلين من أصدقائه والمقربين منه. هكذا يشعر المنفى فى الخارج أنه منفى وحسب. أما فى الداخل فيشعر المقيم أيضا أنه مقيم ومنفى فى الوقت ذاته بل يشعر انه ليس مقيما أو منفيا.

• أنا برنارد

تقول أنا برنارد أستاذة اللغة الإنجليزية والأدب المقارن ب King's College بلندن والمتخصصة بدراسات ما بعد الكولونيالية ودراسات الشرق الأوسط الأدبية والثقافية: إن أحد المصادر للإجماع من بين محوري الكتاب (رأيت رام الله) لقبوله العالمي هو الإعلان القوي الذي قام به الناقد إدوارد سعيد في مقدمته لإصدار الكتاب الإنجليزي الذي عده في فقرته الافتتاحية لتقديمه واحدا من أرفع أشكال التجربة الوجودية للشئات الفلسطينية التي نمتلكها الآن.

• نوبارت بيوجيجا

يقول نوبارت بيوجيجا الأستاذ بمعهد البحر الأبيض المتوسط بجامعة مالطة: اكتسبت هذه المذكرة شهرة واسعة لها كأهم أعمال النثر الغنائي لمعالجة الاضطهاد المستمر لفلسطين وشعبه.

• هيوجا لفورد

يقول هيوجا لفورد وهو كاتب بمجلة واشنطن ريبورت الأمريكية الشهيرة: إن أهمية كتاب " رأيت رام الله" تتجلى في حقيقة أنه بينما يتحدث الكثيرون عن مشكلة اللاجئين، يظل اللاجئون أنفسهم صامتين عموما وغير مسموعين. البرغوثي يبذل هذا الصمت بسرده القوي الغنائي الشعري المؤثر. ليس هناك أي بداية أو نهاية لهذا الكتاب، يكتب البرغوثي أفكاره كما تأتي إلى ذاكرته وما يحمل هذا العمل من خليط من القضايا والأسئلة والأحداث هو حقيقي وغير مبسط مثل الحياة التي أنتجتها.

يوميات الحزن العادي

• محمود شقير:

يقول محمود شقير وهو كاتب فلسطيني ويتأسس تحرير عدة مجلات وصحف عربية:

في كتابه يوميات الحزن العادي يكتب درويش نسا على شكل حوار يجريه شخص مع شخص آخر أو مع نفسه وهو يضمن النفس مقاطع من سيرته الذاتية ويرويها بتمهل وبتفصيل وإسهاب كما يضمنها حكايات ومضايقات يتعرض لها محمود وأبناء شعبه. وهي من النوع المضحك المبكي وكلها تدل على مدى العسف الذي تعرض ويتعرض له الفلسطينيون على أيدي حكام إسرائيل بجماليات اللغة التي تخلق الإيقاع الشعري.

• بيير جوريس:

يقول بيير جوريس وهو شاعر لوكسمبورغي أمريكي وإنثولوجي:

اعتبر هذا الكتاب كتابا أساسيا للفهم التدريجي لفلسطين وشعبها وهذا الكتاب الذي يشتمل على مجموعة من مقالات نثرية هي واحدة من الحسابات الأكثر فعالية وإفادة وعمقا لقراءة المأساة التاريخية الفلسطينية.

في حضرة الغياب

• محمد غنيمي هلال

يقول محمد غنيمي هلال أستاذ الأدب والنقد بمعهد الدراسات العربية في القاهرة في كتابه "النقد الأدبي الحديث":

إن التجارب العالمية الخالدة هي تجارب عاشها أصحابها فصاغوها وكتبوها معبرين عن ذواتهم صادقين في إبداعهم كاشفين حقيقة مشاعرهم بصور رائعة. وليس بالضرورة أن

يكون الأديب قد عاش التجربة بنفسه إذ يمكن أن يكون قد لاحظها وتفهمها فأعمل بها فكره وخياله ولغته. درويش في (في حضرة الغياب) إنما يكتب عن تجربة أو تجارب عاشها أو مر بها فعبر عن ذاته خير تعبير ولكنها في نفس الوقت تنطبق على غالبية جيله ممن هجروا من بيوتهم وقراهم ومدنهم فجاءت هذه التجربة معبرة عن الآخرين خير تعبير.

• ميلود بنباقي

يقول ميلود بنباقي وهو قاص وروائي مغربي في مقال "في حضرة الغياب - سيرة تزهدي في التفاصيل" المنشور في مجلة "الكلمة".

إن هذا النص (في حضرة الغياب) سيرة تجعل من السيرورة الزمنية بوتقة تتصهر فيها الأزمنة وتتداخل اللحظات والمراحل. فينتقل ساردها بمرونة من الماضي إلى المستقبل ومن الحاضر إلى الماضي ومن الطفولة إلى الرشد ومن الذاتي إلى الجماعي ومن الشخصي إلى العائلي ومن الواقع إلى الحلم.

• أنتوني أليساندريني

يقول أنتوني أليساندريني وهو أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب المقارن ب Kingsborough community college، بيروكلين، نيويورك في مقال له (Darwish's Revenants) نشرته مجلة Reconstruction: Studies in contemporary culture (9.4.2009).

إن هذا النص (في حضرة الغياب) يعطينا تبصراً عميقاً في حياة درويش التي هي عبارة عما عاناه من تجربة التشرد والتهجير التي تمثل حياة اللاجئ واقتبس على ذلك بما قاله سنان أنطون وهو شاعر وروائي عراقي في تكريمه لدرويش بعد وفاته بأيام " إن التجربة

المروعة لفقدان درويش الوطن وكونه منفيًا في داخل أرضه في سن مبكرة لم تزل تطارد إبداعات درويش وتصبح موضوعًا رئيسًا له يجري مع تقلبات غنية ومعقدة في معظم أعماله بما يضم هذا النص في حضرة الغياب.

الخاتمة

لم يزل المنفى والاعتراب والإبعاد والترحيل والتشريد والهجرة منذ فترة طويلة مواضيع الأدب العربي. وكان موتيف المنفى الجماعي أو فقدان الجماعي للوطن جزء منفصلا ولكن متاخلا من المشهد الخيالي المشترك. تمظهر هذا الأمر بشكل جديد واتخذ قوة جديدة بعد سقوط غرناطة عام 1492. وبعد ذلك أجبرت موجات من اليهود والمسلمين وغيرهم على الفرار مما كان خلافة قوية ومتنوعة والتي سكنها بعض أهم أدباء وكتاب الأدب العربي من ابن عبد ربلا وابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ولسان الدين الخطيب.

إن هذين الموضوعين - المنفى الشخصي والجماعي - بقيا ولم يزلا فكرة مهيمنة ومتكررة طوال مئات السنوات الماضية من الأدب العربي ولكن انتقلا في القرن الماضي من الحد الهامشي إلى مركز النقاش الأدبي.

أكثر من أي شيء آخر كان طرد ونفى أكثر من 700,000 فلسطيني هو الذي أثار اهتمام الأدب العربي الواسع بالمنفى ومع ذلك كانت الحقبة الاستعمارية الغربية قبل ذلك قد استرعت الانتباه إلى الشعور بالضياع الجماعي.

كان الأدب الشعبي مثل شعر محمود سامي البارود (1839-1904) وأمير الشعراء أحمد شوقي (1868-1932) والروايات التاريخية لجورجي زيدان (1861-1914) متميزا بهذه الخسارة المشتركة. كان البارودي قد نفى إلى سرانديب و أحمد شوقي إلى جنوب أسبانيا.

كان ما ذكرناه آنفا هو ردودا أدبية لفقدان إمبراطورية عربية إسلامية وكانت في جزء منها هادفة إلى تجديد الهوية الجماعية للأدب والتعليم والعلوم والصناعة حيث إن هذا الإرتباط في حالة العديد من الكتاب في أواخر القرن التاسع و أوائل القرن العشرين الذين رأوا أنفسهم جزءا من النهضة العربية أو النهضة كان صريحا.

ولكن بعد عام 1948م، تحول مكان المنفى في الأدب العربي واضطر الأدب العربي للتصدى لتغيرات كبيرة في العالم المحيط به بما في ذلك صدمة الجماهير الفلسطينية التي أجبرت على ترك منزلهم ومن هنا قام المؤلفون الشباك ومنهم محمود درويش بخلق وطن للأدب وأدب الالتزام والمقاومة.

أدى النزوح الفلسطيني عام 1948 إلى نفي جماعي ولأجل غير مسمى. اقتلع أكثر من نصف سكان من منازلهم وقراهم ووطنهم. أصبحت حياتهم منذ أي وقت مضى منذ نزوحهم عام 1948 عبارة عن حالة مستمرة من المنفى وتكراره بأشكال مختلفة من إعادة الانخلاع إلى التهميش ومنه إلى الإنكار الكامل بالذات.

إن تجربة الفلسطينيين للمنفى هي خصيصة من خصائص التمثيل الخرائطي التاريخي والثقافي والزمني الذي هو نو طابع روحاني. ينظر الفلسطينيون إلى النكبة، كارثة 1948 كرمز لنهاية الحياة ما قبل 1948 حيث ساد فيه هدوء نسبي وتجربة الطرد والحياة في المنفى. تمثل النكبة الحياة المفقودة والهجرة الجماعية والطرد القسرى إلى التيه والضلال. إن الفلسطينيين المتشردين في جميع أنحاء العالم بل في العالم كله تجرهم النكبة لفهم ماضيهم وإعادة تجديد حاضرهم والعمل على تحقيق تطلعات مستقبلية.

وكما كانت النكبة الفلسطينية عام 1948م بما أحدثت من هزات في الجسد العربي و الفلسطيني أول حدث يمكن وصفه بكل دقة بأنه نقطة تحول في الأدب العربي الحديث بما فيه أدبيات المنفى فقد مثلت النكسة عام 1967م حدا فاصلا بين زمن شهد إدراكا

مفجعا للذات وعم فيه اليأس والقلق والاضطراب العام والشك العميق علي الشعب الفلسطيني وزمن بحث فيه الكتاب عن أشكال خيالية لإعادة بناء تاريخهم والتعبير عن هويتهم رافضين حلم التاريخ المروع.

في حين تبدأ معظم تجارب الشتات بنهاية الاستعمار حيث هي تشكل أثرا أو نوعا من آثار الاستعمار فالهجرة الفلسطينية هي تجربة بداية الاستعمار الذي يحتفظ بالسيطرة على أراضيهم وتمثيلهم وحياتهم ومصيرهم. ومع ذلك فإن تجربة المنفى في الحالة الفلسطينية بدلا من جعلها الإنتاج الثقافي راكدا تفتح طريقا للتعبير والتطور والإصرار على البقاء الاجتماعي والثقافي والتاريخي إذ تتحول تجربة المنفى إلى مساحة من التحدي والإبداع والمقاومة.

نجد أن هناك كثيرا من الكتاب والكاتبات الذين مارسوا ظاهرة المنفى سواء بطرق مباشرة من خلال معالجته كثيمة أساسية من حبكة كتاباتهم المركزية أو إكتفاء بالإشارات الضمنية إليها أو بطرق أخرى كما نجدها في كتابات العديد من الكتاب الفلسطينيين أمثال غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا ومحمود درويش ومريد البرغوثي وراجا شحادة وفؤاد التركي وغيرهم.

إن سردية "رأيت رام الله" و "ولدت هناك وولدت هنا" لمريد البرغوثي و "يوميات الحزن العادي". هي تسلط الضوء على المأزق الحالي للوجود الفلسطيني وتبرز تجاربهما للمنفى المنعكسة في الطرد وانتزاع الملكية ومشاعر التشريد و التهجير والاغتراب الوجودي من ارضهما و شعبهما و القدرة على البقاء و المقاومة و تضع الحياة الفلسطينية وماآلت إليه في مركزية سرديتهما إذ يوفر كل منهما في مواجهة حطام الحرب والاحتلال العسكري ومن خلال تبادل تجاربهما الخاصة بهما منظورا أدبيا عميقا ومشاركا للوجود الفلسطيني.

في السنوات الخمسين الماضية، كان العديد من الكتاب العرب على اتصال مكثف مع هذه الحالة الغرائبية المتمثلة في الفضاءات البينية من اللانتمائية. ولكن بعد كل هذا، لم يكن هناك فقط المنفى الفلسطيني الجماعي الذي بدأ في عام 1948، ولكن كانت هناك أيضا عمليات النفي الناجمة عن حرب الجزائر من أجل الاستقلال، والحرب الأهلية في لبنان، والدكتاتوريات التي سجت وطردت الكتاب، والاحتلال والحرب الأهلية المستمرة في العراق، و استمرارية الهلاك وسفك الدم في سوريا.

ومن هنا فلا غرابة أن العديد من أبرز الكتب العربية المكتوبة في السنوات الأخيرة تأخذ المنفى كموضوع رئيسي مثل الكاتب اللبناني جبور الدويهي في روايته (مطر حزيران)، و الشاعر الأردني أمجد ناصر في (حيث لا تسقط الأمطار)، و الكاتبة المصرية رضوى عاشور في روايتها (الطنطورية) وغيرها. ينبع معظم هذه المنافي من النزوح الجماعي أو النفي في فلسطين ولبنان والعراق. ومع ذلك فإنها جميعا شخصية للغاية، لا تسعى فقط إلى إعادة إنشاء الهوية الجماعية، بل لدراسة آثار المنفى على الذات.

أصبح هذا الموضوع موضوعا فرعيا في العلوم الإنسانية، وفي السنوات العشرين المقبلة سيكون أحد المواضيع الرئيسية في الأوساط الأكاديمية. لأن التغييرات التي تتجم عن هذه المنافي هي هائلة مثل الحرب العالمية. إن هذه الأدبيات لها تأثير أوسع بكثير. وكما يلاحظ سعيد، "أن المنفى من الجغرافيا والمجتمع البشري لم يزل سمة عامة بين المجتمعات ما بعد الصناعية في جميع أنحاء العالم، وأدب المنفى يتحدث عن شعور مشترك من الاغتراب"¹. ومن هنا نرى أن المنفى هو أحد الأماكن التي تمكن الأدب العربي فيها من التواصل بشكل أقوى عبر الحدود اللغوية.

¹ . Edward W Said, Reflection s on Exile and other Literary and Cultural Essays, Granta, London, 2001, pp 177

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1997م.
2. أثر الاعتراف بالدولة الفلسطينية على مسؤولية إسرائيل عن جرائمها بحق الشعب الفلسطيني (رسالة جامعية) ، فارس رجب الكيلاني، جامعة الأزهر، غزة، 2013م.
3. الأزهري، تهذيب اللغة، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.
4. إسماعيل، بن محمد، صحيح البخاري، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، بيروت، 2001م.
5. إيلاذ أمي بوسكيلا، الأدب الفلسطيني الحديث وثقافته، فرينك كاس بورتليند او آر، لندن.
6. البرغوثي، مريد، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2011م.
7. البرغوثي، مريد، منتصف الليل، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت 2005م.
8. البرغوثي، مريد، ولدت هناك وولدت هنا، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط2، 2011م.
9. الجبوسي، د. سلمى الخضراء، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1997م.
10. حرب حزيران 1967، الموقع: مركز المعلومات الوطني الفلسطيني - وفا.
11. د. أحمد أبو حاققة، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
12. د. محسن محمد صالح، القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، مركز الزيتونة، بيروت، 2012م.
13. درويش ، محمود، الديوان، الأعمال الأولى، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2005م.

14. درويش، محمود، أوراق الزيتون، دار العودة، بيروت، لبنان، 1964م.
15. درويش، محمود، حالة حصار، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2002م.
16. درويش، محمود، ديوانه، دار العودة، بيروت، 1971م.
17. درويش، محمود، سرير الغربية، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 1999م.
18. درويش، محمود، شيء عن الوطن، دار العودة، بيروت، ط1، 1971م.
19. درويش، محمود، في حضرة الغياب، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط1، 2006م.
20. درويش، محمود، يوميات الحزن العادي، ط5، دار العودة، بيروت، 1988م.
21. الزيات، احمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
22. الشحات، محمد، سرديات المنفى، أزمنة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006م.
23. غازي مسعود: "محمود درويش شاعر العالم العربي"، الدستور الأردنية، 28 حزيران، 2002.
24. غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ط1، 1968م..
25. غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ط1، 1968م.
26. فانون، فرانز، معذبو الأرض، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط2، 2015م.
27. الفراهيدي، كتاب العين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

28. المثقف والسلطة، إدوارد سعيد، ترجمة، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م.
29. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، 1998م.
30. مجموعة من الكتاب، الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط1، 1984م.
31. مجموعة من الكتاب، محمود درويش، المختلف الحقيقي، دراسات وشهادات، دار الشروق، عمان، ط1، 1999.
32. المعلقات السبع، برواية الأنباري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود، الكويت، 2003م.

المجلات

- جريدة "الغد" ، 12 كانون الأول 2005.
- جريدة الدستور الأردنية ، 28 حزيران 2002.
- مجلة الشعراء، العدد الثامن، ربيع 2000.
- مجلة المشارف، العدد الثالث، الصادرة في حيفا في تشرين الأول منذ عام 1995.
- مجلة فلسطين، ربيع 2002.

الكتب الإنجليزية

- 1) Andrew Gurr, *Writers in Exile: The identity of home in modern literature*, Atlantic Highlands, New York, Humanities Press, pb.1981.
- 2) Asharoft (Bill) Goreth (Griffiths) Helen (Tiffin), *Key Concepts in Post-Colonial Studies*, Routledge, London, 1998.
- 3) *Chambers 21st Centaury Dictionary* by Chambers, UK, 1999.
- 4) Edward Said, *After the Last Sky*, Faber & Faber, London, 1986.
- 5) Edward W Said, *Reflections on Exile and other Literary and Cultural Essays*, Granta, London, 2001.
- 6) *Exile in Literature*, Maria-Ines Lagas-Pope, Lewisburg Bucknell University Press, Routledge, London.
- 7) Gregory, D, *The Colonia Present – Afghanistan, Plaestine and Iraq*, Blackwell Publication, UK, 2004.
- 8) Lloyd S. Kramer, *Exile and European thoughts, Historical Reflections*, John Wiley & Sons Ltd, UK, 2006.
- 9) Mahmoud Darwish Exile's poet, Edited by Hala Khamis Nassar and Najat Rahman, Olive Branch press, Massachusetts, 2008.
- 10) *Nation & Narration*, Edited by Homi K. Bhabha, Routledge, London and New York, 1990.
- 11) Norbert Bugeja, *Postcolonial memoir in the middle east – Rethinking the luminal in mashriqi writing*, Routledge, London, 2012.
- 12) *Power, Politics and Culture interviews with Edward W Said*, Edited by Gauri Viswanathan, Vintage Books, New York, 2002.
- 13) Robert Edward, *Exile, Self and Society from Exile in Literature* ed: Maria-Ines Lagas-Pope, Lewisburg Bucknell University Press, Routledge, London.
- 14) Salam Mir, Mourid Baraghouti: *The blessing of exile*, Arab studies quarterly, vol. 37, issue. 4.
- 15) *The Anatomy of Exile: A Semantic and Historical Study* by Paul Tabouri, 1st edition (1972), George G. Harap & Co Ltd, London.
- 16) *Writing Palestinian Exile*, Habib, Dr. Maha F, Holy Land Studies (Journal), issue/ 12 volume/12013.

المصادر الإلكترونية

A tiny place of freedom: an interview with Mazen Maarouf at
(mazenmaarouf.wordpress.com)

Journal of Postcolonial Writing, “Mourid Barghouti’s multiple
displacements” , by Karim Mattar at

<http://www.tandfonline.com/loi/rjpw20>
www.adab.com

Tamimbarghouti.net

Verbicide, New International Magazine (2003-issue) at newint.org

www.darwishfoundation.org (محمود درويش - سيرة ذاتية)

www.passia.org (شخصيات فلسطين)

المحتويات

1-7	المقدمة
9-41	الباب الأول أدب المنفى
	الفصل الأول مفهوم أدب المنفى وأبعاده والتظيرية
	الفصل : المنفى وتجلياته في الأدب العربي
	الثاني والفلسطيني الحديث
43-85	الباب الثاني حياة محمود درويش ومريد البرغوثي ومساهمتهما في الأدب العربي
	الفصل الأول محمود درويش نشأته ودلسته وإسهاماته الأدبية
	الفصل مريد البرغوثي نشأته ودلسته وإسهاماته الأدبية
86-123	الباب الثالث دراسة تحليلية انتقائية لأعمال محمود درويش ومريد البرغوثي الأدبية
	الفصل الأول دراسة تحليلية في "رأيت ولم الله لمريد البرغوثي"
	الفصل دراسة تحليلية في نصي "يوميات الحزن العادي" و "في حضرة الغياب لمحمود درويش"
	الثاني الفصل آراء لكتاب حول "رأيت ولم الله" و "يوميات الحزن العادي" و "في حضرة الغياب"
124-127	خاتمة البحث
128-132	المصادر و المراجع

**Exile Literature in Palestine with reference to the
contributions of Mahmoud Darwish and Mureed Al
Barghouti**

“An Analytical Study”

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University
in partial fulfillment of the requirements
for the award of the degree of
MASTER OF PHILOSOPHY

Submitted By

Mutiur Rahman

Under the Supervision of

Dr. Md. Qutbuddin



**Centre for Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067**

2017